من وحي المناسبات

كتاب ضمّ عدة محاضرات ألقيت في مناسبات شتى

الأسوة الحسنة في بناء الذات وإصلاح المجتمع[1]

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

لم تتعرض كتب التأريخ لسيرة المعصومين (عليهم السلام) بعنوانهم قادة ومصلحين اجتماعيين مارسوا عملية التغيير في النفس والمجتمع بأعظم أشكاله وبحسب ما أُتيح لهم من الفرص، بل إن بعضهم، وهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين والحسن المجتبى (عليهما السلام) رأس دولة واضطلع بأعباء الرئاسة الدنيوية، على تعبيرهم، إضافة إلى الإمامة الدينية التي لا يمكن التخلي عنها بحال.

وإنما اكتفيت بالسرد التأريخي لتفاصيل حياتهم على أنها جزئيات متفرقة.

ويمكن إيجاد أكثر من مبرر لهذا النقص في المصادر التأريخية بالنسبة للأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، ومنها:

١- إقصاؤهم (عليهم السلام) عن موقع القيادة الاجتماعية، فلم تُعطَ لهم الفرصة الكاملة لممارسة هذا الدور مما طبع على سلوكهم النشاط الفردي، أو هكذا يتراءى للناظر في حياتهم بالنظرة الساذجة.

٢- عدم نضج الفكر الاجتماعي لدى مؤرخي تلك الأجيال، ليتناولوا بالنقد والتحليل ما كان يصدر عن الأئمة (عليهم السلام) من تصرفات

---

(١) محاضرتان ألقيتا على طلبة الحوزة الشريفة يومي ١٦- ١٧/ربيع الأول/١٤٢٢هـ الموافق ٨-٩/٦/٢٠٠١م.

ومواقف، وإنما ينقلون الوقائع التأريخية على أنها لمشاهدات، أو مسموعات مشتتة متفرقة لا تنتظم ضمن إطار محدد.

٣- الإخفاء المتعمد لكثير من تفاصيل حياتهم، إما حسداً، أو تعصباً، وهذا شأن مخالفيهم، أو تقية وهو شأن مواليهم خصوصاً، وإن أغلب التواريخ قد كُتبت في عصر العباسيين ألد أعداء البيت النبوي الشريف.

٤- إن جُلَّ ما وصل إلينا من تأريخهم (عليهم السلام) هو ما كتبه أصحابهم، وقد ركّز هؤلاء على الجوانب التي تدعم عقيدتهم فيهم (عليهم السلام)، ويثبت أحقيتهم بالأمر، وينفعهم عند الجدال والمخاصمة، فاهتموا بالمناقب والفضائل والمعجزات والنص على الإمامة والدلائل عليها، ولم يعيروا اهتماماً معتداً به لجوانب حياتهم الأخرى.

٥- تَلَفُ الكثير من الآثار بسبب الفتن المذهبية والأحداث السياسية.

أقول: ولئن كان العذر متوفراً في الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) من هذه الجوانب وغيرها، إلا أن كثيراً منها لا يأتي في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد تسلّم موقع القيادة، وأسّس دولة ومجتمعاً مدنياً، ومارس عملية التغيير بأوسع أشكاله، مما لم يستطع فعله أحد، وإن تفاصيل حياته مدونة حتى في الأمور العادية كالمأكل والملبس، ولا مصلحة لأحد في إخفاء آثاره.

فما علينا إلا أن ننظر إلى سيرته نظرة جديدة تهمنا نحن كمرشدين دينيين ومصلحين اجتماعيين، انطلاقاً من الآية الشريفة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(الأحزاب:٢١).

والتأسي به (صلى الله عليه وآله وسلم) يكون على جميع الأصعدة وبجميع المستويات وبكل الاتجاهات.

إن عملية التغيير التي قام بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) معجزة من معجزاته (صلى الله عليه وآله وسلم)، يتعزز بها إيمان المسلم المؤمن برسالته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتكون حجة على غير المؤمن به (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي بين هذا وذاك مثال يحتذى لأي قائد يريد أن يؤسس أمة ويسوسها، ويبني مجتمعاً فاضلاً صالحاً، كذاك الذي أقامه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة، ولم يشهد له التأريخ مثالاً، فلم نسمع أن أحداً سرق، أو قتل، أو زنى، ولا أي انحراف آخر إلا ما ندر، إذ لا يُتصور في تلك الفترة القصيرة أن يصل كل المجتمع إلى درجة التكامل المنشود، أما السمة الغالبة فهي الأخوة، والتآلف، والتكامل، والإيثار، والسمو عن الماديات، والتضحية بالغالي والنفيس في سبيل الله والمبدأ الذي آمنوا به.

إن نظرة واحدة تقارن بين حالي العرب قبل الإسلام وبعده يكفي لمعرفة عظمة النقلة الكبيرة التي عاشتها الأمة، مما يعكس الإعجاز في العلاج والمعالج، أما العلاج فهو القرآن الكريم، هذه الوصفة الإلهية التي وهبها خالق البشر لهذه المخلوقات البائسة التائهة المنحرفة، التي تعاني الآلام والمصاعب والمآسي، بسبب ابتعادها عن الله سبحانه، والمعالج هو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ المعجزة في أخلاقه وسلوكه ونموذج التربية الإلهية (أدّبني ربي فأحسن تأديبي)، ولقد تناولنا الجهة الأولى في كتاب (شكوى القرآن)، أما الثاني فهو ما سنحاول عرضه بمقدار ما يوفق الله سبحانه في هذه الكلمات.

ولنستمع الآن إلى بعض النصوص التي تصف حال العرب قبل الإسلام وبعده، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾(آل عمران:١٠٣)، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(الأنفال:٢٦)، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا

رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(الإيلاف:٣)، وقال تعالى بصدد النهي عن بعض الحالات المنحرفة التي كانت موجودة: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرا، وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً، وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(الإسراء: ٣١-٣٥).

هكذا كان حالهم، قليلٌ مشتتون، بعضهم يقتل بعضاً، وهم محاطون بدول عتيدة تنتهز الفرص لاستعبادهم، وتنتشر الفواحش بينهم: كالزنا، وشرب الخمر، ونكاح زوجات الآباء، وأكل مال اليتيم، والبخس في الميزان، ووأد البنات، وغيرها مما يندى لها جبين الإنسانية.

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد عاش الفترتين: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله وسلم) نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ)[1].

وقال (عليه السلام): (تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الآفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ، وَمَهَافِي الرِّيحِ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ، إِخْوَانَ دَبَرٍ (وهي القرحة في ظهر الدابة) وَوَبَرٍ، أَذَلَّ الأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلا إِلَى

---

(١) نهج البلاغة ج١ خطبة ٢٦.

ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا، فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ وَالأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاءٍ أَزْلٍ (أي شدة) وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ، مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ، فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ، قَدْ تَرَبَّعَتِ الأُمُورُ بِهِمْ فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ الأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ، لا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ (الحجر الصلد، وقرعها أي كسرها)[1]

وفي خطبة الزهراء (عليها السلام)، التي ألقتها في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الصحابة، بعد أن غُصب حقها وحق بعلها: (وكنتم على شفا حفرةٍ من النار، مُذقة الشارب، ونُهزة (أي الفرصة التي ينتهزها) الطامع، وقبسة العجلان (مثل يضرب في الاستعجال)، وموطئ الأقدام (مثل للمغلوبية والمذلة)، تشربون الطرَق (ماء السماء الذي تبول به الإبل وتبعر)، وتقتاتون القِدّ (جلد غير مدبوغ يُقدّ) والورَق، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُنِيَ ببُهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه)[2].

---

(١) خطبة ١٩٢/ج١.

(٢) الاحتجاج ١/ ١٣٥ – ١٤٦.

هكذا كانوا فكيف أصبحوا ببركة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(الفتح:٢٩)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر:٨-٩).

ونحاول أن نستعرض الآن بعض النماذج الرسالية الفذة التي تربّت في أحضان النبوة الكاملة، لنرى الأثر العظيم الذي أحدثه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مجتمعه، وسوف لا نذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) والزهراء (عليها السلام) النموذجين الكاملين لهذه التربية، لأن لهم موضوعهم الخاص من الكلام ولنتطرق إلى نماذج أخرى.

١- حدث شجار بين أبي ذر (رضي الله عنه) وشخص أسود فقال له: يا ابن السوداء، فوبخه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال له ما مضمونه: أدركتك عصبية الجاهلية. فجاء أبو ذر إلى العبد وأعتذر إليه، فرضي عنه إلا أنه أبى إلا أن يرغم هذه الأنانية والعجرفة الفارغة والتكبر المقيت الكامن في النفس الأمارة بالسوء، فقال للعبد: لا أقتنع بالرضا حتى أضع خدي على الأرض وتطأه بنعلك، وفعل العبد، فشعر أبو ذر بزهو الانتصار على أعدى أعدائه، وهي نفسه التي بين جنبيه.

يبعث إليه عثمان بمالٍ جزيل هو بأشدّ الحاجة إليه بيد عبدٍ له ويعده بالحرية إن قبلها أبو ذر، ليبيع لعثمان دينه ويسكت عن مظالمه، فعلم أبو ذر بالنية، فرفض قبول الصلة، فأراد العبد أن يستغلّ طيبة قلب أبي ذر وحبه للخير والتقرب إلى الله سبحانه، فقال لأبي ذر: إن فيها عتقي، فقال أبو ذر: لكن فيها رقي، لأن أبا ذر علم أنه بقبولها عليه أن يجامل عثمان ويداهنه، ولا يقول له ولحاشيته كلمة الحق، فيحشر في سرادق الظلمة، وانتصر أبو ذر مرة أخرى، فليس غريباً أن يودّعه أمير المؤمنين (عليه السلام) حينما نفاه عثمان إلى الربذة بكلمات حزينة مؤلمة لقلب كل غيور على الإسلام ورجالاته، لكنها كبيرة وعظيمة، ومما جاء فيها: إنك خَفتَهُمْ عَلَى دِينِكَ وخافوك على دنياهم، فَاتْرُكْ لهم مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وخذ ما خفت منهم عليه.

٢- يحدّث أحدهم أنه في معركة القادسية سمع جريحاً يئِنُّ ويطلب الماء، وقد أعياه نزف الدم، فلما قُرِّب وعاء الماء إليه سمع جريحاً آخر يطلب الماء فأبى أن يشرب، وقال: اسقِي أخي لئلا يموت، فقام إلى الثاني ليسقيه، فسمع ثالثاً يطلب الماء، فأمر بسقيه أولاً، فلما وصل إليه لم يدركه وفارقته الحياة، فعاد إلى الثاني فوجده كذلك، وعاد إلى الأول فوجده كذلك. فتراهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كلفهم الحياة، إنه غاية السمو والرفعة.

٣- كان لامرأة وزوجها ولد وحيد، مرض هذا الولد فأشفقا عليه، وهو وحيدهما، ولما حان وقت الصلاة خرج الأب إلى المسجد فمات الولد في غيبته، فلم تجزع الأم ولم يتغير حالها، بعد أن استوعبت القرآن، وعلمت منه ما أعدّ الله للصابرين، وأن الله سيوفيهم أجورهم بغير حساب، وأنّ هذا الولد فَرْطٌ لهم على

الحوض، لا يدخل الجنة حتى يدخل أبواه، مثلت كل هذه المعاني أمامها، فغطّت الوليد وجعلته في إحدى غرف الدار، وتزّينت، فلما جاء الزوج استقبلته بعواطف حارة، وقدّمت له الطعام، فسألها عن ولدها، فقالت: إنه بأهدأ حال، ولما أتمّ طعامه مَكّنته من نفسها، فلما قضى حاجته وعلمت أن الله لا يخذل المتقين وسيهبها ولداً بدلاً منه، أخبرت الزوج المفجوع بولده واحتسبه عند الله تعالى، ولما خرج إلى المسجد والتقى برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هنأه على زوجته وبارك له فيها، وأخبره أن الله تعالى أوحى إليه بأنه قضى لهما من ذلك الجماع ولداً صالحاً هو هدية معجلة لهذا الموقف النبيل، وما عند الله خير وأبقى.

٤- أعلن داعي الجهاد للخروج إلى ملاقاة قريش في أُحُد، فجاء عمرو بن الجموح وولداه وأخو زوجته هند وهو عبد الله بن عمرو بن حرام - والد جابر الأنصاري - فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن الله قد أسقط عنك الجهاد، وكان أعرج فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا أرجع حتى أطأ بعرجتي الجنة، فدعا له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وخرجوا معه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أحد، فاستشهد عمرو، واستشهد عبد الله، فجاءت هند بهما على بعير، وأحدهما عدل الآخر، فمرّت على ملأ فيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) ملمحاً إليها: إن منكم مَنْ لو أقسم على الله لأبرّه، ودفنتهما في قبر واحد.

٥- كان مصعب بن عمير من بني عبد الدار من بطون قريش وهم حملة اللواء، وكان من الفتيان المنعمين المترفين، الذين يضرب المثل بجمالهم وترفهم ونعومة عيشهم، فلما صدع رسول الله (صلى الله

عليه وآله وسلم) بالإسلام اعتنق وتنازل عن ترفه ونعيمه، وأصابه ما أصاب المسلمين من العنت والضيق، فافترش الأرض ولبس الخلق من الثياب، فحاول ذووه ثنيه بأن وعدوه ما يشاء من الملذات، فلم تنفع وبعثه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبله إلى المدينة ليعلمهم القرآن، وكان فتى مخلصاً وهب ما عنده لله سبحانه حتى أستشهد في أحد.

٦- خرج المسلمون للقاء الفرس قبل القادسية في معركة الجسر، وكان على الجيش أبو عبيدة الثقفي والد المختار ومعه من عيون الصحابة ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار، ولما وصلوا إلى الجسر حيث يعسكر الفرس في الجهة الأخرى استشارهم فيما يفعل، فأشار ثابت بعدم العبور لتبقى الصحراء من خلفهم رداءً إن كانت الوقعة للفرس، وإن انتصروا عبروا بسلام، أما إذا عبروا للفرس فسيكون العدو من أمامهم والنهر من خلفهم، لكن أبا عبيدة أمر بالعبور، وقال: إننا ما جئنا لنطلب النجاة، بل إحدى الحسنيين أما النصر، أو الشهادة، وأمر ثابتاً أن يكون أول من يعبر، فعبر ثابت وعبر أبو عبيد والمسلمون، ودارت الدائرة عليهم، واستشهد أبو عبيد، واستشهد ثابت، ليعطينا درساً في الطاعة المطلقة للقائد، وإن كان مخالفاً له في الرأي، فإن أي خلاف معه يؤدي إلى الاختلاف والتنازع، وهما منشآ الفتن والاضمحلال والزوال.

٧-كان جويبر إنساناً معدماً ومن الطبقة المسحوقة في المجتمع كما يعبرون، فعرض على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رغبته في الزواج، فبعثه إلى امرأة ثرية من أسرة وجيهة اجتماعياً وعزيزة في قومها، فجاء إلى وليها خاطباً، فاشمأز من هذا الخاطب

وجرأته، وربما اعتبرها وقاحة منه، لكنه لما علم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي بعثه كظم غيظه على مضض ودخل على الفتاة يخبرها، ولعله بالغ لها في الأوصاف السيئة لعلها ترفض فيتخلص من هذه الورطة، لكنها لما علمت أنها رغبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وافقت وأطاعت؛ لتعطينا درساً علمياً في تطبيق الحديث الشريف (إذا رضيتم من الرجل عقله ودينه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) وكانت مصداقاً للآية الشريفة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(الأحزاب:٣٦).

٨- مرّ مالك الأشتر في السوق، فاستهزأ به رجل من أهل النفوس الضعيفة الذين يغترون بحلم المقابل ولم يكن يعرفه، فسكت عنه مالك وهو يومئذ صاحب أمير المؤمنين (عليه السلام) وقائد جيوشه، وقال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام): كان لي مالك كما كنت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال الناس لهذا الرجل: أما عرفت هذا، قال: لا، ومن عسى أن يكون؟! قيل: هذا مالك الأشتر. فارتعدت فرائصه وأيقن بالهلاك، ورأى أن لا نجاة إلا بالمضي إليه والاعتذار منه، فسأل: أين ذهب مالك؟ قيل: إلى المسجد. فجاء إليه ووجده يصلي، حتى إذا فرغ من صلاته توسل إليه معتذراً، فقال: لا عليك فأني ما دخلت المسجد إلا لكي أصلي لك ركعتين وأستغفر لك.

٩- سعد بن الربيع، من سادة الخزرج، بايع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الهجرة، وكان من النقباء الاثني عشر، شارك في بدر وأبلى بلاءً حسناً، وكان من المدافعين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين فرّ أصحابه عنه في أحد، وبعد أن حلّ

الظلام وافترق الجيشان افتقده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: من يستعلم لي حال ابن الربيع؛ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فانتدب أحدهم وفحص عنه فوجده يصارع الموت مرتثاً بالجراح، فقال له: قد سأل عنك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويريد أن يستعلم حالك، فقال كلماته الأخيرة: أبلغ عنّي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، ثم قال: وأبلغ قومي من الأنصار أن لا عذر لكم عند الله تعالى إذا خلص عدوكم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيكم عين تطرف.

هذه النماذج وأمثالها كثير هي التي أنشأها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعب على تربيتها في مدة (٢٣) سنة، وهذه هي النقلة العظيمة[١] التي قام بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك المجتمع الذي عرفت حاله، ولعل من الحكمة الإلهية أن يبعث رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك المجتمع المنحط إلى الحضيض، لتكون المعجزة أعظم، بينما لو بعث في أمة متحضرة لشكك في صحة رسالته وأنه ليس نبياً، وإنما هو من إفرازات تلك الحضارة والمدينة الراقية.

فما أحرانا نحن الحوزة الشريفة وقد نصبنا من أنفسنا مرشدين ومصلحين للمجتمع أن نستوعب هذه الدروس من حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لنفعل كما فعل وننتج كما أنتج مع سهولة الأمر أمامنا بالقياس إليه (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأننا نتعامل مع أناس تربوا في أحضان الإسلام قروناً طويلة ونهلوا من نميره، وأن الوازع الديني موجود في

---

(١) هذا الأثر العظيم له (صلى الله عليه وآله وسلم) جعله على رأس أعظم مائة إنسان أثّروا في تأريخ البشرية كما اختاره مؤلف الكتاب الأمريكي.

بواطنهم، وما علينا إلا أثارته وتوجيهه وتهذيبه، فلماذا نختار؟ ولماذا نتعثر في المسيرة ونحن نملك هذا التراث الضخم والمعين الذي لا ينضب من التجارب؟.

إن إهمالنا نحن الإمامية لتأريخ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غير مبرر أبداً ولا يغني عنه الاهتمام المتزايد بسيرة المعصومين (عليه السلام)، ومهما قيل فيه من مبررات فأنها واهية، لقد ترتبت على هذا الإهمال نتائج سيئة عديدة:

١- خسارة كبيرة بإسقاط هذه التجربة العظيمة عن الحساب والانقطاع عن هذا التراث الضخم بكل ما يحتويه من دروس ومواقف.

٢- إن تأريخه (صلى الله عليه وآله وسلم) كتب بيد العامة، فتجد أغلب السير النبوية بأقلامهم مع وضوح الفرق بين نقلنا ونقلهم (مثال حديث الإفك)، وقد لوثته أقلامهم بما ينزهون عنه المسلم العادي، وتجدهم يحطّون من مقامه (صلى الله عليه وآله وسلم) من أجل رفع عناوين يعتقدون[1] أنها كبيرة، خصوصاً وأنهم لا يعتقدون فيه سمو المرتبة التي نعتقدها. فبعضهم لا يشترط العصمة قبل النبوة فيجوز أن يرسل الله تعالى عابد وثن!! وبعضهم يشترطها في خصوص تبليغ الأحكام، ويجوزّ عليه السهو والنسيان والغفلة وينسب إليه الجهل.

٣- التقصير بحقه (صلى الله عليه وآله وسلم) علينا، وهو صاحب الحق العظيم الذي إليه يرجع الفضل في هداية كل شخص على وجه المعمورة، وما نعيش من خير إلا من فيض بركاته ونفحات رحمته، وما ادّخر لأمته في الآخرة أعظم، فقد فسّر قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

---

(١) كما يروون أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت عنده جارية تغني فطرق الثاني عليه الباب فقال للمغنية أسكتي فقد جاء رجل لا يحب الباطل وكأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحبّه (وأمثالها كثير راجع الغدير (النص والاجتهاد).

رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(الضحى:٥) بالشفاعة يوم القيامة، وورد أن الله تعالى له نصف المحشر يقول فيه رحمتي رحمتي، ولرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) النصف الآخر يقول فيه أمتي أمتي، هذا الرجل العظيم كان سبباً لإفاضة كل هذا الوجود كما في حديث الكساء: (ما خلقت سماء مبنية ولا أرضاً مدحية ولا فلكاً يجري ولا... إلا من أجل هذه الأنوار الخمسة) وأصلها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، أقول: هذا الرجل تمرّ ذكرياته علينا مرّ الكرام عدا ما شاهدناه في السنين المتأخرة وإن كان ما يزال دون المستوى المطلوب.

٤- تربص الأعداء بشخصيته (صلى الله عليه وآله وسلم) للحطّ من كرامته وتشويه سمعته وإلصاق التهم به ما دام المسلمون بين جاهل بمقامه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم العامة، ومعرض عن الاهتمام به وهم الخاصة، ومن خبث أعداء الإسلام أنهم يمدحون علياً ويرفعونه إلى القمة -وهو أهل لكل كمال ولا يبلغون حقه- ولا يثيرون عليه أي أشكال، بينما يتناول شخص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقدح والتشويه، وما ذاك حبا منهم بعلي أو اعترافا بفضله، وإلا لأقروا بمثله لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مربيه ومعلمه، ولكن لامتصاص غضب مفكري الشيعة وعلمائهم الذين لهم الصولة في الكلام والجدال والفكر العميق، فيسترخي هؤلاء لهذا المدح ويغضون الطرف عما يوجه إلى نبيهم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي هو الأصل، وما علي ومذهبه إلا فرع ذلك الأصل.

ومن المؤسف أننا صرنا لا نشعر بمسؤولية الرد والدفاع عن الإسلام ونبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) كشعورنا بمسؤولية الدفاع عن المذهب والأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، ونظرة واحدة إلى المكتبات الشيعية تجد فيها آلاف الكتب التي تعرف المذهب وتبين تفاصيله وتدافع

عنه وترد الشبهات الموجهة إليه، ولا تجد عدد الأصابع من الكتب التي تؤدي نفس الشيء عن الإسلام ونبيه العظيم، حتى بقيت متحيرا ذات يوم عندما طلب مني تقديم كتاب يعرف الإسلام إلى شخص مسيحي أسلم مؤخراً، وها هو ذا الذليل المأجور سلمان رشدي[1] يشوه صورة نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا نتصدى للرد عليه بل ولم نكلف أنفسنا للاطلاع على كلامه المنحط، بينما ننهض نهضة رجل واحد للذب ضد شبهة جزئية موجهة إلى المذهب من هذه الطائفة أو تلك.

ومهما قلنا من دفاع عن أنفسنا بأن الأئمة هم الامتداد الطبيعي له(صلى الله عليه وآله وسلم) وهم نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويمثلون المسار الصحيح والحقيقي للإسلام، كل ذلك صحيح، لكنه لا يغني عن الاهتمام الذي يجدر بنا أن نوليه لشخصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتصرفاته على مختلف الأصعدة، سواء على صعيد علاقته بربه، أو علاقته بنفسه، أو قل حياته الخاصة، وعلاقته بأمته التي يقوم برعايتها، وعلاقته بخصومه في داخل المجتمع، أو على مستوى الأمم الأخرى، هذه كلها محاور للبحث وكل محور غني بالدروس والمواقف والنتائج الكبيرة، وسيكون تصنيفنا لهذه الدروس وفق هذه المحاور المتعددة.

وينبغي الالتفات إلى أن المصدر الرئيسي لدراستنا سيكون هو القرآن الكريم لأكثر من سبب:

---

(١) كاتب هندي الأصل بريطاني الجنسية، كان مسلماً لكنه ارتدّ عن الإسلام وأصبح أداة بيد أعدائه للكيد للإسلام وتضليل أبنائه، وأصدر كتاب (آيات شيطانية) فيه سخرية كثيرة من شخصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأصدر السيد الخميني (قدس سره) عام (١٩٨٨) حكماً بارتداده ووجوب قتله فظل خائفاً مرعوباً متخفياً، وأوجب الحكم غضباً لدى الغرب.

١- إعادة الكتاب الكريم إلى الحياة وإخراجه من عزلته وإعطاء دور الريادة إليه في كل عملية إصلاحية كما أشرنا إليه في كلمات سابقة.

٢- أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان تجسيداً عملياً للقرآن؛ بحيث لو حولت القرآن من كتاب مقروء إلى رجل يمشي على الأرض لكان هو (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولو حولت سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى كتاب يقرأ لكان القرآن، ومن هنا أجاب أحدهم لما سئل عن أخلاق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأختصر الكلام بقوله: كان خلقه القرآن.

وأجد الآن أنه من المناسب حصر المحاور الأربعة في محورين:

الأول: الجانب النفسي أو الفردي، ويمثل سلوكه مع ربه ومع نفسه.

الثاني: الجانب الاجتماعي، ويمثل تصرفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) مع قومه وغيرهم. ولذلك أكثر من وجه:

١- العلاقة الوثيقة بين بعض هذه المحاور بحيث يصعب التفكيك بينها.

٢- إننا التزمنا في دروسنا هذه التركيز على جانبين مفقودين في الدراسات الحوزوية، وهما الأخلاق والوعي الاجتماعي، فبهذا التقسيم يكون تغطية هذين الجانبين واضحاً، حيث يمثل الأول منهما الأول والثاني الثاني، وأن الخطوة الأولى في التصدي لإصلاح المجتمع هو إصلاح الذات، ففي الحديث: (مؤدب نفسه أولى بالتكريم من مؤدب غيره)، ولا قيمة للثاني بدون الأول.

وسألخص[1] هنا بعض الدروس المستفادة منه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأخلاق والوعي الاجتماعي مما يندرج في وظيفة الحوزة العلمية الشريفة، ولتكون لهم نبراساً يستضيئون به[1].

---

(١) هذه المحاضرة مستقلة ألقيت في احتفال كبير لطلبة الحوزة العلمية أقيم في مدرسة القوام الدينية بهذه المناسبة الشريفة في١٧/ربيع أول/١٤٢٢هـ.

١- إن هذه المناصب الإلهية الشريفة ومنها العناوين الحوزوية المختلفة وعلى رأسها المرجعية تتطلب ممن يريد أن يتأهل لها استعداداً وتكاملاً نفسياً عظيما لينالها، قال تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة: ١٢٤) والعهد في الآية يراد به الإمامة بمقتضى تسلسل الآيات التي تتحدث عن جعل إبراهيم إماماً، فسألها لذريته فأجيب بهذا القول، والمرجعية هي إمامة بالحمل الشايع حيث يقوم الولي الفقيه بوظائفها.

وتفسر آية أخرى الظلم بأنه الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣)، والشرك له مراتب عديدة منها الخفي ومنها الجلي، وكل من عصى الله فقد أطاع غيره وأشرك به، فتكون النتيجة أن المرجعية وولاية أمر الأمة لا يكون إلا لمن نزه نفسه عن طاعة غير الله تبارك وتعالى، ولن تجد لغير الله سبحانه عليه سبيلاً بعصمة الله وتسديده، وإن كان ليس بمعنى الشرك الجلي المعروف اصطلاحاً.

لذا تعب رسول الله على تهذيب نفسه وتحليها بالفضائل قبل البعثة الشريفة عندما كان يتعبد في غار حراء ويطيل النظر والتأمل في ملكوت السموات والأرض، لأنه كان يعلم بوجود نبي قد أطل زمانه، فعليه أن يبلغ أقصى درجات التكامل لينال هذا الشرف العظيم، وناله بتوفيق الله ولطفه.

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الله عز وجل أدّب نبيه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤)، ثم فوض إليه أمر الدين والأمة ليسوس عباده، فقال عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(الحشر:٧)، وأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مسدداً موفقاً مؤيداً

---

(١) أحيط الموضوع بتفاصيل أكثر في محاضرات لاحقة وجُمعت وطبعت في كتاب (الأسوة الحسنة).

بروح القدس، لا يزلّ ولا يخطئ في شيء مما يسوس به الخلق)، فلا تُنال هذه المواقع الشريفة بالادعاءات والافتراءات والاعتداء على الآخرين، بل بتهيئة المحل ليكون قابلاً للفيض الإلهي وبعده ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الجمعة:٤).

٢- الإعراض عن الدنيا وزخارفها وملذاتها الفانية وعدم التكالب عليها، كما يحصل من البعض ولو كلفه ذلك دينه والعياذ بالله، أدبه بذلك ربه قال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:١٣١) يعطيه القرآن مثلاً عن حقارة الدنيا ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ، وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف:٣٣-٣٥) فهذا كله لا قيمة له ولا يصلح تعويضاً عما أعدّ الله للمتقين، فماذا حصل عليه أهل المعاصي حتى رضوا بجهنم مقاماً.

وينبغي الالتفات إلى أن الدنيا التي أعرض عنها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليست الدنيا المحرمة، فهذا أوضح مصاديق العصمة ومتطلباتها، بل هو الحد الأدنى من تكليف أي مسلم، وإنما كان إعراضه عن الدنيا المحللة، ولما سئل (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذلك قال (صلى الله عليه وآله وسلم): تواضعاً لله سبحانه؛ فإعراضه كان تعظيماً لله سبحانه وإجلالاً له أن يجعل في قلبه حباً وشغلاً غيره تبارك وتعالى.

جاء يوماً لزيارة فاطمة (عليه السلام) فوجد على باب دارها إزاراً ملوّناً، فرجع عن زيارتها، فبلغها الخبر فتصدقت به على المسلمين، فعاد إلى زيارتها وضمها إلى صدره وهو يقول: ذرية طيبة بعضها من بعض.

٣- الثبات على الحق وصلابة الإرادة وعلو الهمة ورباطة الجأش وقوة القلب وشجاعة النفس وعدم التزلزل والتراجع مهما كانت الضغوط عليه عظيمة ومهما كانت المغريات كبيرة، وهو القائل لعمه أبي طالب لما جاءته قريش وعرضت عليه عدة عروض مقابل تخليه عن تبليغ الإسلام ونشره فأجابهم: (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أموت دونه).

مرّ مشرك في أوائل البعثة وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) واقفاً يصلي وبإزائه ابن عمه علي (عليه السلام) وخلفه زوجته خديجة، فقيل للمشرك: هذا محمد الذي يزعم كذا وكذا، فقال: إن أمره سيظهر وسينتشر، قيل: كيف؟ قال: لعلو همته وقوة إرادته وهو يواجه الدنيا بصبي وامرأة. يقول (صلى الله عليه وآله وسلم): إن إيمان المؤمن أقوى من الجبل، قيل: كيف يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: لأن الجبل يستقل منه بالمعاول، ولا يستقل من إيمان المؤمن شيء.

لم يثنه الأذى الذي تعرض له وقد وصفه بأنه ما أوذي نبي بمثل ما أوذي به، رموه بالحجارة حتى سالت منه الدماء، ورموه بالفرث والدم وهو يصلي، شتموه ووصفوه بالبذيء من الكلام: ساحر، مجنون، شاعر، وهو صابر محتسب، وبدلوا أسلوبهم إلى الإغراء: إن شاء محمد مالاً جمعنا له من أموالنا ما يشاء، وإن شاء ملكاً ملّكناه علينا، وهو يرفض ذلك، قاطعوه هو ومن معه في شعب أبي طالب اقتصادياً واجتماعياً حتى فقد ركنيه أبا طالب وخديجة، تآمروا على قتله فهاجر إلى المدينة، ثم جيشوا الجيوش لاستئصاله هو ومن معه في بدر وأحد والأحزاب وغيرها، وفي كل ذلك تجده رابط البأس مطمئن القلب ساكن النفس، يقول علي (عليه السلام) رمز الشجاعة وعنوانها: (كنا إذا حمي الوطيس لذنا

برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)) فكانت أوصافه هذه منبعاً يستقي منه أصحابه.

٤- سعة الصدر وتحمل الناس على اختلاف مستوياتهم وطبائعهم، وهو القائل (آلة الرئاسة سعة الصدر)، وأية رئاسة أعظم من منصبه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويوصي عمه العباس: يا بني عبد المطلب، إنكم لا تستطيعون أن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم. يقول مالك خادم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): خدمت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عشر سنين ما قال لي يوماً لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لمْ تفعله؟ وهي قابلية إعجازية ومن معجزاته أخلاقه (صلى الله عليه وآله وسلم).

٥- الرحمة والرأفة بالمؤمنين، وقد وصفه الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨)، من رحمته كان يود أن يؤمن جميع الناس ويحرص على ذلك حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ – بعد توليهم عنك – إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾(الكهف:٦) وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٣).

٦- الاهتمام بالقرآن، كان يسهر به ليله ويظمئ هواجره، ويقول لابن مسعود: اقرأ القرآن، فيعتذر ابن مسعود، فيقول: أحب أن أسمعه منك، فيقرأ ابن مسعود وعينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تذرفان من الدموع، ويقول: شيبتني هود والواقعة، ولا ينام حتى يقرأ الحواميم.

٧- عدم التقاعس عن أداء المسؤولية والوظيفة الشرعية بالتمسك بمبررات واهية كقلة الأتباع ونحوه، أدبه بذلك ربه: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾(النساء:٨٤).

٨- الاتعاظ بكل ما حوله وأخذ العبرة من كل شيء يمر به، وهذه العظة والعبرة رزق يقذفه الله في قلب من يشاء، وهو بنفس الوقت حجة على من لم يؤمن أو آمن ولم يطبق. مرّ (صلى الله عليه وآله وسلم) على ماء جارٍ، والماء طهور للخبائث المادية، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل منه خمس مرات في اليوم أترى يبقى على جسده شيء من الدرن؟ قالوا: لا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فانتقل بتفكيرهم إلى الجانب المعنوي، فإن الحسنات مطهرات للقلب من الآثار السيئة للمعاصي بصريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(هود:١١٤) ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾(النساء:٣١) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): كذلك الصلاة، فإن أدائها خمس مرات لا يبقي من السيئات شيئاً.

يدخل (صلى الله عليه وآله وسلم) الحمام ويرى الماء الساخن، فيقول (صلى الله عليه وآله وسلم): نعم البيت الحمام؛ يزيل الدرن ويذكر بالآخرة. وبهذا الصدد يروى أن أحد العلماء تعرض لتهم باطلة وتشنيع من قبل الحاسدين، وهو يسير قدماً في طريق مرضاة الله تبارك وتعالى ويقدم العطاء النافع لنفس هذا المجتمع الذي يحاربه، وكان يتألم لهذه المبادلة غير المنصفة، وفي طريقه رأى شجرة مثمرة والناس يرمونها بالحجارة وهي تهديهم من ثمراتها الطيبة، فتعلم الدرس من هذه الشجرة كيف يحاربها الناس وهي تدرّ عليهم الخيرات، فاطمأن قلبه ورضي بما قسم الله له.

٩- عدم الاغترار بالمنصب والجاه وكثرة الأتباع والمريدين في أي موقع كنت (مرجعا دينياً أو إمام جماعة أو مدرسا حوزوياً أو خطيب منبر)، ففي الحديث: (إنما أهلك الذين من قبلكم خفق النعال من ورائهم)، إن هذا

الداء إذا تمكن من قلب المتصدي[1] فإنه يؤدي به إلى الانحدار، لأنه أولاً منشأ لعدة رذائل قلبية أولها الرياء، فإنه يبدأ بالتصنع والتكلف ليجتذب إليه الناس وسيكون هدفه رضا الناس لا رضا الله تبارك وتعالى.

وثانياً: أنه سيسير وفق أهواء الناس ومشتهياتهم، لأنه يخشى انفضاضهم عنه، لذا حذره الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ - أي انفضاضهم عنك- وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾(الأحزاب:٣٧)، وما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليجامل أحداً على حساب الحق، ولكنها على أية حال نصيحة وموعظة ضرورية يجب تقديمها إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) وإلى كل حملة الرسالات وتحذيره من عواقبها، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾(الأنعام:١١٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾(المؤمنون:٧١).

ويستحوذ هذا الداء على تفكير المبتلى به ويأخذ عليه مجاميع تفكيره، فلا يرى غيره حتى يصبح مسيّراً من قبل العامة لا مسيراً لهم، وفي مقابل ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) تلميذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الأول: (لن تزيدني كثرة الناس من حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة)، وهذا الصحابي الرسالي الواعي عمار بن ياسر يقول في معركة صفين: (والله لو ضربونا بسيوفهم حتى أبلغونا سعفان هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل).

وثالثاً إنه يبدأ بالكيد والحسد لمن يزاحمه في هذا المكان، أو اذا اقتنع الناس بغيره فسوف لا يتورع عن الكذب والغيبة والافتراء والبهتان للانتقاص من ذلك الغير والصعود على حساب قتل الشخصية المعنوية

---

(١) أريد بهذا البيان توجيه موعظة لبعض المتصدين ممن هم ليسوا بأهلٍ مستفيدين من إثارة العواطف وبعض الادعاءات.

للآخرين، وهي أعظم من قتل الشخص ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(البقرة:١٩١)، وقد ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ (البقرة:٦١) أي يكذبونهم ويستهزئون بهم ويحاولون إماتة دعوتهم وتنفير الناس عنهم.

١٠- التواضع: ولم يكن تواضعه تكلفاً وإرغاماً للنفس على غير طبيعتها التي تقتضي الاستعلاء والاستكبار، وإن كان هذا الشكل من التواضع محموداً ومطلوباً ممن يريد الكمال وتهذيب النفس، إلا أن تواضعه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أحمد، لأنه كان سجية وطبيعة وذاتياً ناشئاً من معرفته الكاملة بحقيقة العبودية لله تعالى التي لا يبقى أي معنى للالتفات إلى الذات.

فهذه نقاط عشر على صعيد بناء الذات، وأما في الاتجاه الآخر وهو إصلاح المجتمع وتقويمه وبناؤه، أو ما نسمّيه بالوعي الاجتماعي، فنستلهم من سيرته (صلى الله عليه وآله وسلم) الدروس التالية:

١- وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام) بأنه (طبيب دوّار بطبّه)، والطبيب على شكلين: طبيب مقيم يقصده المرضى، وآخر يجول بطبه ويقصد المرضى في محالّهم، وهكذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الطبيب المعنوي الذي يعالج بتعاليمه وآدابه وأحكامه أمراض الروح والنفس والقلب، فإنه لم يقبع في بيته ينتظر أن يأتيه السائل، بل كان يقصد الناس في بيوتهم وأماكن تجمعهم، فذهب إلى الطائف لدعوة ثقيف، وما أن سمع أن وفد من المدينة قد وصل مكة حتى قصدهم، فكانت بيعة العقبة الأولى والثانية قبل الهجرة، وكان يجالس الأعراب في معاطن الإبل غير مستنكف من ذلك، وربما كان الإعرابي يعبث بلحيته الكريمة وهو يحدثه، وها هي الآية الشريفة تصرح بذلك: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

(التوبة:١٢٢).

فالفقيه هو الذي يقصد قومه ويحذرهم ويرشدهم ويهديهم، فهل استفاد أحد هذا الدرس من الآية الشريفة؟ وهل كتبنا في بعدها الاجتماعي عشر ما كتبناه عن الاستدلال بهذه الآية الشريفة عن صحة خبر الواحد والإشكالات على ذلك وردّها رغم أن ذلك من أوضح الواضحات؟ ونسينا واجبنا المهم.

وها هي الحوزة تضم آلاف الطلبة والفضلاء لكننا لا نحسّ بوجودهم ولا نسمع لهم ركزا في المجتمع، نعم ترى لهم دوراً فاعلاً في جمع الحقوق الشرعية وإيصالها إلى المرجعية، وهو دور ليس بالقليل، لكن الاقتصار عليه تقصير، ولا أكتمكم أن ٩٠٪ من أسئلة الطلبة تدور حول هذا الموضوع، وقلما يلمس من أحدهم همّاً اجتماعياً، أو التصدي لمواجهة مشكلة فكرية، أو المساهمة بمشروع خيري اجتماعي أو اقتصادي، وغالب ما نسمع ذلك من خلال الشباب المثقفين الواعين المخلصين.

٢- عدم اتخاذ بطانة وحاشية قبل التحقق من إخلاصهم لله تبارك وتعالى وشعورهم بالمسؤولية أمام مجتمعهم، بحيث تجدهم يفكرون في هموم الناس وآلامهم وآمالهم أكثر مما يفكرون في مصالح أنفسهم، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران:١١٨)، فمثل هذه البطانة تحجب الرؤية الصحيحة وتعزل الراعي عن رعيته وتقلب الحقائق وفق ما تشتهي أنفسهم وتدر مصالحهم، وأعتقد أن تجارب الحياة فيها الكثير من الشواهد.

٣- عدم الاستخفاف بالناس الضعفاء والمتدنين اجتماعياً أو اقتصادياً، وفي مقابلها الاهتمام بالوجهاء والأثرياء، قال الله تعالى مؤدباً نبيه: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ

مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٢٥)، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف:٢٨)، وقال تعالى في تحقير فعل بعضهم ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَن جَاءهُ الأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾(عبس:١-١٠).

٤- والدرس الأعظم الذي نستفيده منه (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلينا الالتزام به هو حرصه على وحدة المسلمين والضرب بشدة على من يسعى لتمزيقهم وتشتيتهم وتفريق أمرهم، فقد سعى بعض اليهود الذين كانت لهم سطوة وسلطة على أهل يثرب قبل هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، حتى سحب البساط من تحتهم حينما أشرق الإسلام بينهم، وقتل فيها خلق كثير خصوصاً في يوم بغاث، فحاول بعض اليهود إعادة تلك النعرات الجاهلية، ووجد استجابة من بعض النفوس التي لم يطهرها الإسلام بشكل كامل، فعادت إلى جاهليتها وازدادت الفتنة واشتدّ أوارها، فتداعى الفريقان للقتال، فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالأمر، فخرج من بيته مسرعاً لم يدرك لبس رداءه فكان يجره، وأطفأ نار الفتنة وعاد الصفاء إليهم ببركته (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد جعل الله تعالى وحدة الكلمة من نعمه العظيمة التي امتن بها على عباده بالإسلام ونبيه العظيم، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (آل عمران:١٠٣)، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي

الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣)، ونعم ما قال أحد العلماء: (بُني الإسلام على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة)، إذا كان الأمر كذلك، فما بال شرذمة قليلين لا ورع لهم بل ولا دين يريدون أن يزرعوا الفتنة بينكم[1] ويشتتوا أمركم ويقدموا بذلك خدمة مجانية لأعداء الله ورسوله وخدمة للشيطان الرجيم، فهؤلاء ليسوا منا ونحن منهم براء.

(١) إشارة إلى ما كان يفعله البعض من تسقيط وتشويه داخل الحوزة العلمية مما أدى إلى تمزيقها.

قبس من سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام)[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

أحاول أن أعرض اليوم باختصار بعض الدروس التي يمكن أن نستفيدها من حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) وسيرته، فإن لنا فيه كما في ابن عمه وأخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أسوة حسنة؛ لأنه نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بنص آية المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾ (آل عمران:٦١)، ولم يكن معه بعد النساء والأبناء إلا علي بن أبي طالب، وقد سُئِلَ أحد أئمة المذاهب الإسلامية عن أفضل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: فلان، فقيل له: ثم؟ قال فلان، فقيل له: ثم؟ قال فلان، فقيل له: ثم؟ قال: الناس بعد ذلك سواسية. فقيل له: لم تذكر علياً (عليه السلام)؟ قال: إنما سألتموني عن أفضل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام) نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). فإذا كان (عليه السلام) نفس رسول الله وقد أمرنا بالتأسي بسنته ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً﴾(الأحزاب:٢١) فيكون الأمر شاملا لسنة أمير المؤمنين (عليه السلام) وسيرته.

وأول درس نستفيده هو المعرفة التامة بالله سبحانه؛ فإن المعرفة بالله هي غاية الغايات وهي منتهى الآمال، وقد قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت. ويقول (عليه السلام): لو كشف لي

---

(١) ألقيت على طلبة الحوزة الشريفة بمناسبة ميلاد أمير المؤمنين (عليه السلام) في ١٣ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠٠/١٠/١٢ م.

الغطاء ما أزددت يقيناً. ويقول (عليه السلام): أول الدين معرفته؛ لذا كانت عبادته (عليه السلام) لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار، وإنما وجد الله سبحانه أهلاً للعبادة فعبده. ومن كلماته (عليه السلام): (إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، إلهي أنت كما أحب فأجعلني كما تحب) هكذا كانت علاقته (عليه السلام) مع ربه.

وقد كانت هذه العلاقة هي محور حياته، فلا يقول قولاً ولا يفعل فعلاً ولا يتقدم ولا يتأخر إلا في حدود وظائف العبودية وحقوق الربوبية، تنسب إليه كلمة مضمونها (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده وفيه)، يريد ناقلها أن يقول إن ابن أبي طالب (عليه السلام) كان يعيش في رحاب الله، وإنه لم يغفل عنه ولا لحظة، ويرى الله في كل شيء، وهو معنى صحيح لكنه قاصر عن بيان سموّ مرتبته، فإنها تتضمن معنى أنه (عليه السلام) كان يرى شيئاً غير الله سبحانه، وهو لم يكن يرى غير الله سبحانه في كل شيء في هذا الوجود، وما هذه الأشياء التي حوله إلا مرآة عاكسة للحق تبارك وتعالى، وهي فانية فيه لم يكن يلحظها (عليه السلام) وإنما يلحظ صورة الحق التي تتجلى فيها.

هكذا كان (عليه السلام) في ذكر دائم لله وحياة مستمرة في رحاب الله سبحانه وحركة دؤوبة لنيل رضاه، وإذا اقتضت طبيعته البشرية أن ينام ويأكل وينكح مما يعدّه تقصيراً في وظائف العبودية الكاملة فإنه كان يستغفر لذلك أشد الاستغفار، ويبكي أشد البكاء، رغم أن هذه الأمور غير اختيارية، سئل (عليه السلام): أيهما أحبُّ إليك الجلوس في المسجد أم في الجنة؟ قال: في المسجد. وقيل: ولم؟ قال (عليه السلام): لأن في الجلوس في المسجد رضا ربي وفي الجلوس في الجنة رضا نفسي، وأنا أقدم رضا ربي على رضا نفسي. ما خُيّر بين أمرين لله فيهما رضا إلا اختار أشدّهما على نفسه، لأنه يريد أن يقدم كل شيء قربة إلى الله سبحانه، وأهم شيء يملكه الإنسان هي نفسه، فأمات نفسه بمعنى أنه ضحّى بغرائزه وبميوله وبنزعاته في سبيل نيل رضا الله.

في معركة الخندق حيث نازل عمرو بن عبد ودٍّ فارس قريش وبطلها ثارت بينهما غبرة، فلما انجلت رأى المسلمون علياً على صدر عمرٍو يريد أن يحتزّ رأسه، لكنه قام عنه ثم عاد إليه وذبحه، فسُئل عن ذلك، قال (عليه السلام): لأن الملعون بصق في وجهي عندما أردت الإجهاز عليه، فغضبت فخشيت إن أنا ذبحته على هذه الحال ألاّ يكون فعلي خالصاً لله سبحانه بل لعله غضباً لنفسي، فلما سكنت نفسي عدت إليه وقتلته ابتغاء رضوان الله وحده. هكذا كان علي (عليه السلام) لم يغفل عن الله سبحانه حتى في أحرج اللحظات وأحلك الظروف. ولمعرفته الكاملة بالله سبحانه كان إذا وقف بين يديه ترتعد فرائصه وربما خرّ مغشياً عليه، رآه أحد أصحابه وهو على هذه الحالة فهرع إلى الزهراء (عليه السلام) وقال: أدركوا علياً فقد مات، قالت (عليها السلام): وكيف، قال: لقد رأيته يصلي ثم سقط على الأرض مغشياً عليه. فعلمت الزهراء (عليها السلام) الحال، وقالت: إن هذه الحالة تدركه كلما وقف بين يدي ربه.

كان (عليه السلام) كثير العبادة يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، بحيث أن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) الذي لقّب بالسجّاد وزين العابدين لكثرة عبادته وطول سجوده كان ينظر في صحيفة فيها ذكر لعبادة جده أمير المؤمنين (عليه السلام)، فإذا تأمل بها أطال النظر ثم رماها ولم يتحمل ما فيها وهو يقول: أين عبادتي من عبادة جدي أمير المؤمنين (عليه السلام). في معركة صفين وفي ليلة الهرير التي وصفت بأنها لا يسمع فيها إلا صوت الحديد على الحديد كأصوات الرعد في السماء، وإذا هو قائم (عليه السلام) يصلي، فقال له مالك الأشتر: أهذا وقت صلاة يا سيدي؟ قال (عليه السلام): وهل قاتلناهم إلا من أجل الصلاة؟.

ويكفيك أن تقوم برحلة بين دعاء الصباح والمناجاة الشعبانية ودعاء كميل، وتسرح نظرك في نهج البلاغة لتخرج بحصيلة وافرة من المعرفة بالله سبحانه:

(فَلَئِنْ صَيَّرْتَنى لِلْعُقُوباتِ مَعَ أَعْدائِكَ، وَجَمَعْتَ بَيْني وَبَيْنَ أهل بَلائِكَ، وَفَرَّقْتَ بَيْني وَبَيْنَ أَحِبّائِكَ وَأَوْلِيائِكَ، فَهَبْني يا إِلهي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَرَبّي صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ، وَهَبْني صَبَرْتُ عَلى حَرِّ نارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلى كَرامَتِكَ، أَمْ كَيْفَ أَسْكُنُ فِي النّارِ وَرَجائي عَفْوُكَ).

(لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ، سُبْحانَكَ اللّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، مَنْ ذا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ، وَمَن ذا يَعْلَمُ ما أَنْتَ فَلا يَهابُكَ).

(إِلهي إِنْ حَرَمْتَني فَمَنْ ذَا الَّذي يَرْزُقُني، وَإِنْ خَذَلْتَني فَمَنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُني ... إِلهي إِنْ أَخَذْتَني بِجُرْمي أَخَذْتُكَ بِعَفْوِكَ، وَإِنْ أَخَذْتَني بِذُنُوبي أَخَذْتُكَ بِمَغْفِرَتِكَ، وَإِنْ أَدْخَلْتَني النّارَ أَعْلَمْتُ أَهْلَها أَنّي أُحِبُّكَ، إِلهي إِنْ كانَ صَغُرَ في جَنْبِ طاعَتِكَ عَمَلي، فَقَدْ كَبُرَ في جَنْبِ رَجائِكَ أَمَلي).

لقد رسمت هذه المعرفة المتكاملة بالله سبحانه فلسفته في الحياة، وحددّت ملامح شخصيته والتي منها:

١- الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بزخارفها؛ لأنه يعلم أنها فانية ولا تستحق شيئاً بإزاء ما أعدّ الله سبحانه في دار الكرامة لمن أعرض عنها، وفي الحديث (لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء)[1]، وكان هذا الإعراض عن الدنيا شرطاً لتشريفهم بهذا المقام الرفيع، ففي دعاء الندبة: (إِذِ اخْتَرْتَ لَهُمْ جَزيلَ ما عِنْدَكَ مِنَ النَّعيمِ الْمُقيمِ الَّذي لا زَوالَ لَهُ وَلاَ اضْمِحْلالَ، بَعْدَ أَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ في دَرَجاتِ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَزُخْرُفِها وَزِبْرِجِها، فَشَرَطُوا لَكَ ذلِكَ، وَعَلِمْتَ مِنْهُمُ الْوَفاءَ بِهِ فَقَبِلْتَهُمْ

(١) بحار الأنوار:٤٣/٢٠.

وَقَرَّبْتَهُمْ، وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيَّ وَالثَّناءَ الْجَلِيَ، وَأَهْبَطْتَ عَلَيْهِمْ مَلائِكَتَكَ وَكَرَّمْتَهُمْ بِوَحْيِكَ، وَرَفَدْتَهُمْ بِعِلْمِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الذَّريعَةَ إِلَيْكَ وَالْوَسيلَةَ إلى رِضْوانِكَ).

يخاطب الدنيا (يا دنيا غرّي غيري، طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك)[1]، يدخل بيت المال فيوزع كل ما فيه ويصلي فيه ركعتين، ويخرج ويقول ما مضمونه: والله ما كنزت من دنياكم، ولا أعددّت لبالي ثوبي طمراً[2]، ولو خرجت منكم بغير الرداء الذي جئتكم به من المدينة لكنت خائناً. رقّع مدرعته حتى استحيا من راقعها[3]، وكيف يغتر بالدنيا وترنوا عينه إليها أو يطمع في شيء من حطامها وبين يديه قوله تعال: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ، وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥) بل إن ابن أبي طالب لا يرضى بالآخرة ثمناً. يقول بعض أهل المعرفة: (إن الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرامان على أهل الله)[4] وعلي (عليه السلام) من أهل الله، فهل تتوقع أن تشغله لذّات الآخرة من لحم طير وحور عين فضلاً عن لذات الدنيا عن ﴿رِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢)؟ ومن الوضوح الذي لا يحتاج إلى بيان أن الدنيا التي أعرض عنها أمير المؤمنين (عليه السلام) إنما هي الدنيا المحللة لا المحرمة، فإن ترك المحرمات أول مراتب العصمة التي هي من شروط إمامتهم.

---

(١) نهج البلاغة: ١٧/٤ من كلماته وحكمه (عليه السلام).

(٢) نهج البلاغة: ٧٠/٣، من كتاب له (عليه السلام) إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري يزهده في الدنيا.

(٣) نهج البلاغة: ٦٠/٢، خطبة ١٦٠.

(٤) عوالي اللئالي: ١١٩/٤.

٢- الشجاعة كان (عليه السلام) يقول: والله لو تظاهرت العرب على قتالي ما وليت عنها مدبراً، ولماذا يُدْبر؟ ومم يخاف؟ وهل الخوف إلا نتيجة الحرص على هذه الدنيا والاهتمام بعلائقها؟ فإذا قطعها (عليه السلام) ولم تبقَ له رابطة وعلقة بها، بل همه كله في الله سبحانه، فلماذا يخاف؟ اسمعه يقول: (إن ألف ضربة بالسيف أهون على علي بن أبي طالب من ميتة على الفراش)[١] ويقول (عليه السلام): (إن ابن أبي طالب ليستأنس بالموت استئناس الطفل بمحالب أمه)[٢] وشجاعته وثباته أصبح مثلاً ورمزاً لكل بطولة، قيل له (عليه السلام): إذا حمي الوطيس وحالت الخيل والرجال بيننا وبينك فأين نجدك؟ قال: حيث تركتموني. وكان الأعداء قبل الأصدقاء يعلمون منه هذه الصفة، ففي معركة صفين حمل (عليه السلام) متنكراً فظهرت منه العجائب، فاختلف قوم معاوية أنه علي أم هو مالك الأشتر، فأمر معاوية الجيش أن يحمل حملة رجل واحد عليه، فلم يتزلزل عن موقفه، فقال معاوية: إنه علي (عليه السلام)، وإن مالك وغير مالك أقلّ من أن يثبتوا في مثل هذا الموقف. ولا زالت كلمته ترنّ حينما خُضّب بدمه في المحراب في مسجد الكوفة (فزت ورب الكعبة).

٣- الثبات على الحق والإرادة الصلبة، فلا تأخذه في الله لومة لائم، وعدم المداهنة والمجاملة على حساب الحق، وهي أمور طبيعية عند من يعيش الأهداف السامية التي ترتفع عن حضيض الماديات. قيل له: لو أبقيت معاوية أياماً حتى تستتب لك الأمور، قال: هيهات، لا أطلب الحق بالجور، والله لا أبيت ليلة ومعاوية يلي أمور المسلمين. وعندما انعقد اجتماع الستة أهل الشورى وانقسموا نصفين، وكان الترجيح بيد عبد الرحمن بن عوف، فقال لعلي: امدد يدك أبايعك على أن تعمل بكتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله

---

(١) بحار الأنوار:٣٢/٦١.

(٢) بحار الأنوار:٢٩/١٤١.

وسلم) وتسير بسيرة الشيخين[١]، قال: أما العمل بكتاب الله وسنة رسوله فنعم، وأما سيرة الشيخين فلا. فصفّق على يد الآخر الذي استجاب لما يريد، ولو كان علي (عليه السلام) مثلهم يعيش للدنيا لكان مستعداً لأن يعطيهم ما يريدون لينال ما يريد. جاءه أخوه عقيل يوماً طالباً زيادة عطائه، فإنه كثير العيال، فأحمى له حديدة ورماها إليه، فظنها عقيل صرة مال، فرمى بنفسه عليها فاكتوى بحرّها، قال (عليه السلام): (أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ)[٢].

٤- الرحمة والرأفة بالمؤمنين ومشاركته لهم في آلامهم، كان يتألم لعوائل الشهداء في صفين ويبكي لبكائهم، وإليه ينسب القول[٣]:

ما إن تأوهت من شيء رزئت به كما تأوهت للأيتـــام في الصغرِ
قد مات والدهم من كان يكفلهم في النائبات وفي الأسفار والحضرِ

ونقل عنه أنه مرّ على دار سمع منه بكاء طفل، فسأل عن ذويه فقالت أمه أنها مشغولة بالطحن فسأل عن أبيه قالت استشهد في صفين فبكى ومسح على رأس اليتيم وقال لأمه أما أن تسكتيه وأطحن أو بالعكس.

وهو القائل: (أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ[٤]، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ) (هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لاَ

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٩٣/١.

(٢) نهج البلاغة: ٢١٧/٢.

(٣) بحار الأنوار: ٤٧/٣٣.

(٤) وهذا معنى يجب تطبيقه على جميع المستويات فنقول أأقنع أن يقال لي حجة الإسلام والمسلمين أو سماحة آية الله ... .

طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ)[1]. وصفه عدي بن حاتم الطائي لمعاوية بأنه كان فينا كأحدنا.

٥- اهتمامه بالموعظة وما يرقق القلب، كالمسح على رأس اليتيم وتلاوة القرآن وذكر الموت، فقد سمع من حبيبه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً أن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: وما جلاؤها يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن، فتراه يوصي ولده الحسن (عليه السلام): (أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ)[2].

اعترضت أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) معضلة، فقالوا: نبعث لعلي (عليه السلام) ليحلّها لنا، فقال الثاني: لا، بل نحن نقصده؛ لأنه معدن العلم وأهل بيت الوحي، فبحثوا عنه فإذا به يغرس في بستان وهو يرتل القرآن، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَيَحسَبُ الإنسَانُ أنْ يُترَكَ سُدًى﴾ إلى آخر الآيات من سورة القيامة، وعيونه تذرف من الدموع[3].

٦- التواضع وعدم الاغترار بالمنصب والجاه، فهو هو قبل المنصب وبعده، وهو رئيس دولة مترامية الأطراف لم تزينه الخلافة بل هو زانها، وإذا حق للخلافة أن تفخر فبعلي بن أبي طالب. كان يسير يوماً على دابته فالتفت، وإذا بقوم يسيرون خلفه، فنهرهم وقال: ما هذا؟ قالوا: شيء نفعله في كبرائنا وسادتنا لتعظيمهم. فقال: في هذا عزّةٌ للراكب وذلة للماشي، وهما أمران مرفوضان وخصلتان مذمومتان. وفي الحديث: (إنما أهلك الذي من قبلكم خفق النعال من ورائهم، وان أخوف ما أخاف عليكم خفق النعال من ورائكم) فإن

---

(١) من كتابه المتقدم إلى عثمان بن حنيف.

(٢) بحار الأنوار:/٢١٧/٧٤ وتجدها في نهج البلاغة: ج٣ في ما كتبه إلى ولده الحسن (عليه السلام) منصرفاً من حاضرين في طريق صفين.

(٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٢٧١/٣.

حب الجاه من أشد الأمراض القلبية، ويحتاج إلى مجاهدة عظيمة، لذا ورد في الحديث: آخر ما ينزع من قلوب الصديقين (حب الجاه).

٧- الصبر والجلد في مواجهة الصعاب ما دام أن ذلك في سبيل الله وبعين الله، وأعتقد أن من يمر بحياة أمير المؤمنين يجد من الشواهد الكثير على ذلك، ولا عجب فإن البلاء على قدر إيمان المرء كما في الحديث، لذا كان أكثر الناس بلاءً أكملهم.

بدأ حياة النصب والكفاح والمصاعب منذ نعومة أظفاره حين كان يتحمل مع ابن عمه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أذى قريش في بداية الدعوة، ثم حوصر معه في شعب أبي طالب (عليه السلام) مروراً بمصاعب الهجرة والمبيت على الفراش ومعارك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾(آل عمران: ١٥٢-١٥٣) ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾(التوبة:٢٥).

وبعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويوم الهجوم على الدار، وتلك كانت المحنة الكبرى على قلبه حين عجزت السماوات والأرض عن تحمل الموقف، وهو يرى القوم يعتدون على ابنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقودون حجة الله بحمائل سيفه، ثم ابتزازه حقه خمساً وعشرين سنة، ثم الرجوع إليه بعد أن تغيرت الدنيا ومن فيها وتنكر له الأصحاب ونابذوه الحرب، واستشهد وهو يتجرع غصص المصائب، فقد انهار جيشه واستفحل أمر معاوية حتى كانت تصل غاراته إلى ضواحي الكوفة فلا يتصدى له أصحابه، فيدعوهم إلى الدفاع عن حرمات الإسلام فلا يجد مصغياً، ويقول: (وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى الْمُعَاهَدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا، وَرِعَاثَهَا، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالاسْتِرْجَاعِ وَالاسْتِرْحَامِ،

ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هَذا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً)[1] لشدة هذه المآسي التي توجع القلوب وتدميها، فكان في نهاية حياته يصعد على المنبر وينعى أصحابه الأوفياء عمار وابن التيّهان وذا الشهادتين ويبكي ويتمنى الموت، ويقول: متى يبعث أشقاها؟ هكذا تجرع الغصص والآلام، وكلها كانت ثمناً يدفعه لكي يعيش لله.

٨- الحفاظ على مصلحة الإسلام وحفظ كيان المسلمين ووحدتهم، فرغم أن القوم غصبوا حقه إلا أنه لما علم أن بقاء الإسلام منوط بسكوته عن حقه سكت ولم يبخل عليهم بالنصيحة ولا تركهم في جهلهم يعمهون، بل كان يقيل عثرتهم ويصحّح خطأهم ويوجههم ويرشدهم ويفهمهم الصواب، وكان يمكنه ألاّ يتجاوب معهم ليكشف زيفهم وقصورهم وتقصيرهم، لكن ذلك يكون على حساب الإسلام، فتجاوز كل هذه الأنانيات وعمل مخلصاً لله.

فما أحرانا ونحن ننتسب إليه ونجاوره ونتكلم باسمه ونتقمص دوره أن نهتدي بهداه ونسير مسيرته؛ ليحشرنا الله تعالى في شيعته ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون:١١١).

---

(١) نهج البلاغة: ٦٩/١ خطبة ٢٧.

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قدوة الزوجات الرساليات[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ علينا بنعمة الإسلام، والهداية إلى الإيمان وولاية أهل البيت (عليهم السلام). هذه – أي الإيمان وولاية أهل البيت (عليهم السلام) - كلها نعم قلّما يُلتفتْ إليها. فالناس تعرف من معنى النعمة المال والبنين والجاه، أمّا هذه النعم التي هي أعظم النعم لا يلتفت إليها، لذلك هذا الشخص الذي يأتي إلى الإمام الصادق (عليه السلام) ويقول له: ليس عندي أي شيء، فيقول له الإمام: عندكم أكثر مما في السماوات والأرض، فقال: كيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال الإمام (عليه السلام): عندك ولايتنا أهل البيت، لو أعطيت ما في السموات والأرض هل تتخلى عنها؟ قال: لا، يا ابن رسول الله، قال الإمام (عليه السلام): إذن لديك شيء أكبر من السماوات والأرض.. فهذه نعم قلّما يلتفت إليها – وما كنا نهتدي لولا أن هدانا الله، وصلّى الله على الأدلاّء على طاعته والهداة إلى سبيله والقائمين بأمره، والوسيلة إلى رضوانه، وأبواب رحمته، محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

لا بد لأي رسالة لكي تستمر في الوجود وتحافظ على نفسها، ومنها رسالة الإسلام – ولك أن تطبقها على أية رسالة... المذهب كرسالة، أو أنتم كحوزة أيضاً عندكم رسالة تطبقونها، لكني أخص في الذكر رسالة الإسلام – إلى عدة مقومات أستطيع تصنيفها إلى: عوامل ذاتية وموضوعية، فأما الذاتية فهي ترجع إلى:

أ. ذات الرسالة من حيث المحتوى والمضمون.

---

(١) ألقيت بمناسبة ميلاد الزهراء (عليها السلام) في ٢٠ جمادي الثانية ١٤٢٢ هـ الموافق ٢٠٠١/٩/٩م.

ب. ذات حاملها وما يمتلك من مؤهلات وقابليات وملكات.

وأعني بالعوامل الموضوعية، العوامل الخارجية المحيطة بالرسالة، ورسالة الإسلام اكتملت فيها هذه المقومات، فمن الناحية الذاتية ذات الرسالة شريعة إلهية نزلت من خالق السماوات والأرض، وذات حاملها أكمل مخلوق وأشرف مخلوق، ولا أريد هنا التحدث عن هذه الناحية (العوامل الذاتية) فلها مناسبة أخرى، وأما العوامل الموضوعية الخارجية فهي ثلاثة:

أولاً: القوة التي تدافع عن الرسالة وحاملها، وقد تمثلت بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ثانياً: العنوان الاجتماعي الكبير الذي يمثل الغطاء والحصانة الاجتماعية لحامل الرسالة فيحميه من الاخطار، وقد تمثل بأبي طالب عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أشار الشاعر إلى هذين العاملين فقال:

فلولا أبو طالـب وابنه لما مثل الدين شخصاً فقاما

فذاك بمكة آوى وحاما وهذا بيثرب لاقى الحماما

وهذان الركنان يفتقدهما جملة من الأنبياء كما عبر القرآن، مثلاً عن نبي الله لوط (عليه السلام) فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(هود:٨٠) فالقوة هو علي بن أبي طالب (عليه السلام)، والركن الشديد أبو طالب (عليه السلام) لو طبقناهما على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فنبي الله لوط (عليه السلام) لم يكن يمتلك هذين المقومين.

ثالثا: المال الذي وفره ثراء أم المؤمنين خديجة ومالها الكثير الذي كرسته لإنجاح دعوة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وأنا بهذه المناسبة – العشرين من جمادي الثاني- التي تصادف ميلاد الزهراء (عليه السلام) أودّ الحديث عن الوالدة خديجة الكبرى، وأكون بذلك قد أعدت ذكرى هذه المرأة الجليلة التي أطأطأ رأسي كلما ذكرتها هيبة وإجلالاً لعلو مقامها، ويكفي دليلاً على ذلك –الدليل على علو قدرها- أن الإمام

المعصوم (عليه السلام) يفتخر بالانتساب إليها، ففي زيارة وارث التي هي مروية عن إمام معصوم يزور بها إماماً معصوماً فيعظمه، بقوله (عليه السلام): (السلام عليك يا بن خديجة الكبرى)، فما هي منزلة خديجة الكبرى حتى يفخر الإمام (سلام الله عليه) بالانتساب إليها.

وبهذا الحديث عن أم المؤمنين خديجة الكبرى نكون قد أدخلنا السرور على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أحب خديجة بصدق وإخلاص، وبقي وفياً لذكراها طول حياته وبعد وفاتها بسنين كثيرة، فقد روى ابن حجر في الإصابة عن عائشة قولها: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا ذبح الشاة - وهذا الكلام في المدينة بعد وفاتها بسنين طويلة، لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) دخل بعائشة في المدينة – يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة إني لأحب حبيبها.

وندخل السرور على ابنتها الزهراء (عليه السلام) فإنها تسر بذكر أمها بقدر حزنها عليها حين توفيت، فقد روي أن الزهراء (عليها السلام) كادت أن تهلك نفسها من البكاء وهي يومئذ بنت خمس سنين، وجعلت تلوذ بأبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتدور حوله وتقول له: أبَ أين أمي، حتى هبط الأمين جبرائيل (عليه السلام) يقرأ فاطمة السلام من الله تعالى ويخبره بمكان أمها في الجنان، فمن هي خديجة؟.

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو أسد بطن من بطون قريش، منهم العوام بن خويلد والد الزبير، فخديجة عمة الزبير بن العوام، وهو ابن عمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صفية بن عبد المطلب.

كانت خديجة في الجاهلية تدعى بالطاهرة؛ لأنها لم تدنس نفسها بما كانت تفعله نساء قومها من سلوكيات الجاهلية المنحرفة، حتى سيدات قريش كانت تخوض في تلك الأعمال لذا عُيّر عدد من رجال قريش بأمهاتهم، فأحدهم يقال

له ابن النابغة، والآخر يقال له ابن الزرقاء والثالث يقال له ابن صهاك والرابع يقال له ابن آكلة الأكباد – هكذا كانت أمهات هؤلاء، أما خديجة (عليها السلام) فكانت تسمى بالطاهرة، حتى أنه روي عندما جاءت النساء تُسْلِمْ بعد الفتح، ومنهن هند، فقرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سورة الممتحنة إلى أن وصل ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾(الممتحنة:١٢)، فقالت إحداهن: وهل الحرة تزني؟ وكان العباس بن عبد المطلب جالساً فنظر إليها ونظر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وابتسم – أما خديجة فكانت عفيفة نقية طاهرة جليلة القدر في الجاهلية قبل الإسلام، وهذا أول درس نستفيده من هذه المرأة العظيمة بأن لا ينصاع الإنسان للأعراف والتقاليد والتصرفات المنحرفة التي تسود المجتمع انطلاقاً من كلمتهم المشهورة (حشر مع الناس عيد).

وهذا الوصف – أي الطاهرة- ينسجم مع عقيدتنا نحن الإمامية بأن سلسلة آباء وأمهات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمعصومين كلهم مؤمنون موحدون إلى آدم (عليه السلام)، وقد ورد في زيارة وارث: (أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُوراً فِي الْأَصْلَابِ الشَّامِخَةِ، وَالْأَرْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجِّسْكَ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا، وَلَمْ تُلْبِسْكَ مِنْ مُدْلَهِمَّاتِ ثِيَابِهَا) وقال الإمام السجاد (عليه السلام) في خطبته المعروفة في مجلس يزيد (لعنة الله عليه): (أنا ابن نقيات الجيوب، أنا ابن عديمات العيوب)، وأوضح مصداق لهذه الأمهات هي الزهراء وخديجة (عليهما السلام).

وتذكر بعض المصادر التأريخية أنه تزوجها قبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عتيق بن عائذ المخزومي وأبو هالة التميمي، ولأبي هالة منها هند بن أبي هالة، فيكون هند أخاً للزهراء (عليها السلام) من أمه، لذلك ورد في صفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث الإمام الحسن (عليه

السلام) قال سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصّافاً[1]، وقد تكون بعض تلك التفاصيل التأريخية محل نظر وإشكال لسنا بصدد التحقيق فيه.

خطبها الكثير من أشراف قريش لمالها وجمالها وجلالة شأنها قبل تزوجها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فرفضت، حتى رغبت في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدما سمعت من غلامها ميسرة مما شاهده من علامات النبوة قبل البعثة ومما سمعته من بحيراء الراهب في حقه لّما سافر معه ميسرة في تجارة خديجة، وكان عمره الشريف حين زواجه منها خمسة وعشرين سنة وهي في الأربعين، لتعطينا درساً آخر هو أن المرأة مهما تمتلك من مقومات الجمال والمال والكمال إذا جاءها من هو كفءٌ من حيث العقل والدين فلا ترفضه لأجل فقره أو أي اعتبار آخر، فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتيماً وليس موسراً، وهي ثرية ذات تجارات واسعة في مصر والحبشة والشام وغيرها، ويخرج الرجال للانتفاع بأموالها ولها عدد كبير من الجِمال.

وقد ذكرت قصة زواجه (صلى الله عليه وآله وسلم) بها من البداية وقصة سفره للتجارة بأموال خديجة وما رافقه من المعجزات في بعض المصادر، وقد عارض هذا الزواج عدد من أهل المقاييس الدنيوية كما هو الحال اليوم، وعاشت معه حياة زوجية سعيدة، ظلّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحن إليها ولم تعوضه عنها أية زوجة من زوجاته اللاحقة، حتى أن إحداهن قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة – وهذا الكلام في المدينة بعد وفاتها بسنين - فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيرا منها.

---

(١) مكارم الأخلاق للطبرسي الحديث الأول ص ١٠.

فغضب ثم قال: لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، آمنتْ بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء[1] .

وكانت متفهمة لسلوك زوجها (صلى الله عليه وآله وسلم) والتربية التي يمر بها استعداداً لحمل الأمانة الكبيرة، فقد حُبب إليه الخلاء في غار حراء قبل البعثة بسنين، فكانت ترعاه وتمده – وهكذا ينبغي لزوجات الرساليين أن يكنّ متفهمات لمسؤوليات أزواجهنّ وراضيات بها ومتعاونات معهم – حتى بُعث بالنبوة في الأربعين من عمره، فكانت أول من آمن به، ولم تكن تحتاج إلى برهان ودليل على صدقه؛ لأنها كانت ترى اجتماع أوصاف النبي المنتظر فيه، بل أستطيع القول أنها تزوجته بعد أن توسمت فيه ذلك، فرجت أن تنال هذا الشرف العظيم، فشاء الله تعالى لها هذه المنزلة الرفيعة، فزواجها منه كان مبنياً على هذا الهدف العظيم، لا كما يصوره بعضهم من أنه ناشئ عن علاقة حب قبل الزواج ليبرر به العلاقات غير المشروعة والاختلاط غير الشريف.

ولم يكن مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) طوال سنين بعد النبوة إلا هي وأمير المؤمنين (عليه السلام) كما سجله الإمام (عليه السلام) في بعض كلماته في نهج البلاغة، ففي كلمته التي يصف فيها موقعه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن قال (وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أخلاقه، وَيَأْمُرُنِي بِالإِقْتِدَاءِ بِه. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسلام غَيْرَ رَسُولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآله- وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.)[2]، وهكذا بدأ الإسلام بهؤلاء الثلاثة.

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٢٢٤/٩ وغيرها من المصادر على تقارب بالألفاظ.

(٢) نهج البلاغة ١٥٧/٢.

وكانت امرأة عاقلة حكيمة، فحينما خوطب (صلى الله عليه وآله وسلم) بالرسالة وغشي عليه هيبة لكلام الله تعالى بادر إلى عند خديجة يقول لها: زملوني زملوني وهو مثقل بحمل هذه الأمانة العظيمة، فأقبلت خديجة (رضي الله عنها) تعينه على أمره وتقول: كلا والله، لا يخزيك الله أبداً، إنك لَتَصِل الرحم... إلى آخر كلامها، وقالت له (صلى الله عليه وآله وسلم): أبشر يا بن عمّ واثبت، فو الذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، وكانت قد اطلعت على العلامات التي تسبق ظهور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّ زمانه قد حان، وسمعت ذلك من ابن عمّها ورقة بن نوفل ومن بعض الأحبار والرهبان، وكانت تتوقع ذلك في محمد بن عبد الله، بل إنها تزوجته لّما تفرست فيه من كمالات تؤهله لأن يكون هو نبي آخر الزمان فتحققت فراستها.

وبيّن جبرائيل (عليه السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيفية الوضوء والصلاة وعلّمها لخديجة ففعلت كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان جبرائيل يقرأ خديجة السلام من ربها فيقول لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): اقرأ خديجة السلام من ربّها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا خديجة، هذا جبرائيل يقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: الله السلام ومنه السلام وعلى جبرائيل السلام.

ووقفت إلى جنب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تخفف عنه آلام الرسالة وأعباءها وتُشد من أزره وتسمعه كل كلام طيب وتفرج كربه، وكانت (رضي الله عنها) لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عوناً كبيراً – وهنا ملاحظة ننبه عليها وهي ضرورية - فإن أشد ما يحتاجه حامل الرسالة مقابل ما يتعرض له من مصاعب ومحن هو البيت الهادئ والصدر الحنون والواسع، وعلى العكس فإن أصعب من كل ما يواجه في الخارج هو البيت المشاكس، لذلك نجد أن أشد تهديد في القرآن لم يوجه إلى المشركين – رغم

أنهم نصبوا الحرب لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - ولا إلى الكفار ولا إلى اليهود ولا إلى إبليس ولا إلى المنافقين، وإنما وجه إلى داخل البيت الذي كان ينغص على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حياته فقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾(التحريم:٤) - فإنه تعالى لم يهدد أحداً بهذا التهديد، فغاية ما أعد للمشركين أنه نزل عليهم ثلاثة آلاف من الملائكة مسوّمين، أما إبليس فقال عنه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾(النساء:٧٦)، مما يدل على خطورة التنغيص من داخل البيت[1]، فمن هنا نعرف أهمية دور خديجة في احتضان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يواجه تلك المصاعب في أول بعثته -.

وهذا الدرس أريد أن تستفيده نساء حاملي الرسالة والمسؤولية من علماء وفضلاء وخطباء ومؤمنين واعين، فيكنّ لهم كما كانت خديجة رضوان الله عليها لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لا كاللواتي نزل فيهنّ هذا التهديد الشديد بسبب نظرتهن المادية الضعيفة للحياة الزوجية.

وفي السنة الخامسة من البعثة ولدت فاطمة الزهراء (عليها السلام)، وقد تضمنت ولادتها الكثير من الآيات والمعجزات مما لا مجال لذكرها الآن - إحداهن أنها كانت مقاطعة من قبل نساء قومها، والمرأة أثناء الولادة تحتاج إلى امرأة أخرى تلي أمر الولادة منها، ففي الرواية أنه نزلت أربع نسوة من السماء تلي أمر الولادة فسألتهن خديجة عمن يكنّ، فعرفن أنفسهن بأنهن مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وغيرها.

وأيضاً من المعجزات قضية تحديث الزهراء لأمها وهي حمل في بطن أمها، فقالت: يا رسول الله، إن هذا الحمل الذي في بطني يكلمني، فبشرها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها ستكون منها ذريتي، وأنها امرأة

---

(١) راجع كتاب (رفقاً بالرجال يا قوارير).

طاهرة، فلذا كانت تسمي الزهراء (عليها السلام) بالمحدّثة والمُحَدّثة بالكسر والفتح.

وهنا أود الإشارة إلى فائدة مزدوجة:-

الأولى: أن عمر خديجة حين ولادتها للزهراء كان ستين سنة (تزوجها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي في الأربعين فلما بلغ البعثة وكان عمره أربعين أصبح عمرها ستون سنة) وهو عمر غير مناسب عادة للحمل والإنجاب، فيكون أصل حملها بالزهراء معجزة خلاف القوانين الطبيعية، وهذه النكتة لم تسجل في الكتب، ومنها ننتقل إلى فائدة أخرى.

الثانية: اشتهر بين الفقهاء أن سن اليأس للمرأة هو خمسون عاماً إلا القرشية فأنه ستون وقد اعترفوا رغم شهرة الحكم أنه لا دليل عليه (انقل لكم نصاً من شرح اللمعة للشهيد الثاني، قال الشهيد الثاني في شرح اللمعة: والحكم مشهور ومستنده غير معلوم، واعترف المصنف (الشهيد الأول) بعدم وقوفه فيها على نص). فأقول: لعل الأصل في هذا الحكم هو حمل خديجة – وهي قرشية كما نعلم- بفاطمة وهي في الستين من العمر.

وقد تحملت معه (صلى الله عليه وآله وسلم) ألوان الأذى وبذلت كل تلك الأموال الطائلة في نصرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وحوصرت معه في شعب أبي طالب سنين عجاف أتفقت فيها قريش على مقاطعة بني هاشم ومن والاهم اقتصادياً واجتماعياً، فأجهدهم الجوع والعناء وهم يعانون هذه العزلة في شعاب الجبال، مما ينبئك أن هذا السلاح الخسيس يلجأ إليه أهل الباطل ليحققوا مآربهم الشيطانية في كل زمان ومكان، ولم يكن يصل إليهم الطعام إلا بشق الأنفس، وفي أحد الأيام لقي أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة وهي عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعه في الشعب فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه

أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه به فشجّه ووطأه وطأ شديداً[1]، هذا والجميع مشركون.

وبعد أن خرجوا من الشعب ومزقت صحيفة المقاطعة في حادثة معروفة توفيت هي وأبو طالب، وبينهما ثلاثة أيام في شهر رمضان من السنة العاشرة للبعثة، فهدّ موتها ركن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسمّى ذاك العام بعام الحزن ودفنت بالحجون، ونزل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حفرتها وتركت بعدها يتيمتها الزهراء (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي بنت خمس سنين.

وردت في فضلها عدة أحاديث، ففي الخصال للصدوق عن ابن عباس قال: خط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أربع خطط في الأرض وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أفضل نساء أهل الجنة أربع: خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون – وهذا الحديث مروي بطرق متعددة توجد في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر المطبوع على هامش الإصابة لابن حجر –.

وفي الخصال أيضاً عن الإمام الصادق (عليه السلام): إن أفضل زوجات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خديجة بنت خويلد ثم أم سلمة، وروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: قام هذا الدين بمال خديجة وسيف علي بن أبي طالب.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٥/٢.

ولما منّ الله تعالى بنصر نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) على اليهود وغنم منهم فدك الأرض الزراعية الواسعة – كانت خالصةً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، والقرآن يقول ما دام لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب فهي تكون خالصة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونزل قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾(الإسراء:٢٦) قال الروح الأمين لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن الله يأمرك أن تدفع فدك إلى فاطمة نحلة عوضاً عما بذلته أمها خديجة من أموال في سبيل الإسلام، فكانت بيدها (عليها السلام) في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى حين وفاته، فسلام عليها وعلى ابنتها وعلى ذريتها وعلى زوجها، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

فاطمة بنت أسد مثال الإيمان والتضحية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما هو أهله وصلى على محمد وآله الطاهرين...

كما تحدثنا في ذكرى ولادة الزهراء (سلام الله عليها) عن الوالدة، كذلك في هذه المناسبة المباركة التي هي مولد أمير المؤمنين (عليه السلام) نذكر الوالدة العظيمة فاطمة بنت أسد بن هاشم، خصوصاً وإنه لم يعرف يوم وفاتها أو ولادتها حتى يحتفل بذكراها، فلنخصص جزءاً من الاحتفالات في هذا اليوم لها باعتباره يوماً من أيامها لما حصل لها في هذا اليوم من المنقبة والفضيلة.

وهاتان المرأتان أعني خديجة وفاطمة بنت أسد (عليهما السلام) تشتركان في نقطتين:

الأولى: رعايتهما الواسعة لحامل الرسالة (صلى الله عليه وآله وسلم) مما أوجب صدور كلمات رقيقة وجليلة منه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهما.

الثانية: تقصير المسلمين في معرفة هاتين المرأتين، وغاية ما يعرف عنهما اسمهما وبعض النتف البسيطة عن سيرتهما المباركة لا أكثر، فكتاب الإصابة المكرّس لسير الصحابة كتب أقل من نصف صفحة في سيرة فاطمة، بينما ملأ صفحات لغيرها ممن هنّ أقل شأناً منها ولا سابقة لهنّ في الإسلام. وكتاب الأعلام للزركلي الذي دوّن أسماء من هبّ ودب لم يذكر لها اسماً ولا حتى في المستدرك.

وإن كانت مظلومية فاطمة بنت أسد أكبر من خديجة، والجهل بها أكثر لذنب حُسب عليها، وهو أنها أم علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي حادّته

---

(١) ألقيت على طلبة الحوزة الشريفة بمناسبة ميلاد أمير المؤمنين (عليه السلام) في ١٣/رجب / ١٤٢٢هـ، الموافق ٢٠٠١/١٠/١م.

قريش ونابذته وشتمته على المنابر سبعين عاماً، فكيف يمجّدون أمه، ويشاركها بهذا الذنب زوجها حامي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وناصره أبو طالب بن عبد المطلب سيد الأبطح، الذي قالت فيه أخت عمرو بن عبد ود العامري فارس قريش بعد أن بلغها قتله، قالت: ومن الذي تجرأ على أخي وقتله؟ قيل لها: علي بن أبي طالب، فارتاحت عندئذ وسكنت وقالت أبيات من الشعر، نأخذ هذين البيتين محل الشاهد:

لو كان قاتل عمر غير قاتله لكنتُ أبكي عليه دائــم الأبدِ

لكن قاتله من لا يعــاب به قد كان يدعى أبوه بيضة البلدِ

ونحن حينما نعرض سيرة هاتين المرأتين (خديجة وفاطمة بنت أسد)، خصوصاً إذا لم نكتفِ بالسرد التاريخي وإنما نبين بعض الدروس والعبر المستفادة منهما، فإننا سنغني ثقافة المرأة المسلمة بالشيء الكثير، لأن مكتبة المرأة تبدو فقيرة بمعالم شخصية المرأة المسلمة كما يريدها الإسلام، فمن هي أم أمير المؤمنين (عليه السلام)؟.

هي فاطمة بنت أسد بن هاشم وزوجها أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم، فأولادهما أول من ولد من هاشميين[1]، وهم أربعة، أكبرهم طالب ثم عقيل ثم جعفر ثم علي (عليه السلام)، وبين كل واحد وآخر عشر سنين[2]، فيكون أولهم (وهو طالب) أكبر من آخرهم (وهو علي (عليه السلام)) بثلاثين

---

(١) بعض المصادر قالت أن علي بن أبي طالب هو أول من ولد من هاشميين والصحيح أن إخوته سبقوه بهذا اللقب لأنه أصغرهم والمهم أنه (عليه السلام) وإخوته سبقوا كل أحد بهذا العنوان، لذا لا بد من تأويل هذا الكلام الموجود في تهذيب الأحكام –والذي تجده في الكافي، كتاب الحجة باب مولد أمير المؤمنين (عليه السلام). ولعله أراد بالأول نسبة إلى غير أولاد أبي طالب فيكون: الكلام شاملاً له ولإخوته وليس بالنسبة إلى إخوته.

(٢) مقاتل الطالبيين ص٣

سنة، وهو نفس الفرق في العمر بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين علي (عليه السلام) فيكون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالعمر بقدر طالب الابن الأكبر لأبي طالب[1].

وقد كانت مؤمنة بالله وموحدة له قبل الإسلام على دين أبيها إبراهيم (عليه السلام) وملته، وبذلك نعتقد نحن الإمامية، فإن سلسلة آباء وأمهات المعصومين (عليهم السلام) كلهم إلى آدم (عليه السلام) مؤمنون موحدون، فإنهم لم ينتقلوا إلى صلب مشرك ولا رحم مشركة قط.

ويشهد لذلك ما ورد في حديث ولادتها لأمير المؤمنين (عليه السلام) – وكان ذلك قبل البعثة طبعاً - عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال: كان العباس بن عبد المطلب ويزيد بن قعنب جالسين ما بين فريق بني هاشم إلى فريق عبد العزى بأزاء بيت الله الحرام، إذ أتت فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكانت حاملاً بأمير المؤمنين (عليه السلام) لتسعة أشهر، وكان يوم التمام، فوقعت بأزاء بيت الله الحرام، وقد أخذها الطلق فرمت بطرفها نحو السماء وقالت: أي ربّ، إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك وبكل نبي من أنبيائك وبكل كتاب أنزلته، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل (عليه السلام)، فإنه بنى بيتك العتيق (وهذا شاهد على إيمانها في الجاهلية)، فأسألك بحق هذا البيت ومن بناه، وهذا المولود الذي في أحشائي الذي يكلمني ويؤنسني بحديثه وأنا موقنة أنه إحدى آياتك ودلائلك، لما يسرت عليّ ولادتي. قال العباس بن عبد المطلب ويزيد بن قعنب: فلما تكلمت فاطمة بنت أسد ودعت بهذا الدعاء رأينا البيت قد انفتح من ظهره ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا، ثم عادت الفتحة والتصقت.. إلى أن خرجت وبين يديها أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وكانت طيلة مكثها في داخل الكعبة تأكل من ثمار الجنة

---

(١) هذا الحساب نحتاجه لأمر ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وتشرب من أنهارها بحسب ما أفادته الروايات، في ذلك يقول جدي الشيخ اليعقوبي[1]:

قمـــر بدا مِن أُفُق مكّة يـشرقُ فأضـاءَ مغربـها بـه والمـشرقُ
وتهلّـل البيـت الحـرامُ بطلعـةٍ منهـا يلـوحُ سـنا الهـدى يـتألقُ
وضعته وسط البيت أمٌ لم تزل تقتات من ثـمر الجـنان وتُرزقُ

ولعبد الباقي العمري (رحمه الله) في ميلاده (عليه السلام):

أنت العـلي الذي فـوق العلى رُفعا ببطن مـكة وسط البيت إذ وضـعا
سمّتك أمك بنت الليث حيـدرة أكـرم بلبـــوة ليث أنجبت سبعا

وقد بقي أثر الشق شاهداً للأجيال على أثر هذه الفضيلة، وإن حاول الحساد إخفاءها بكسوة الكعبة وترميم الشق ونحوه لكي لا يسأل عنه من يراه فتنتشر هذه الفضيلة.

وهذا هو الإخفاء المادي، وهناك إخفاء بشكل آخر، إذ حاولوا أيضا نسبتها (الولادة في الكعبة) إلى غير علي (عليه السلام)، فجاؤوا بإفك ينزه عنه بيت الله الحرام، فرووا عن مصعب بن عبد الله (وهؤلاء الزبيريون معروفون بحقدهم على أهل البيت (عليه السلام)) أن أم حكيم بن حزام (أحد الصحابة الذين أسلموا متأخراً)، وهي فاختة بنت زهير بن أسد بن عبد العزى كانت ولدت حكيماً في الكعبة وهي حامل، فضربها المخاض وهي في جوف الكعبة فولدت فيها، فحملت في نطع وغسل ما كان تحتها من الثياب عند حوض زمزم، ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد.

فالراوي الحاقد لم يكتفِ بالتزوير، وإنما أيضا ينفيها عن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ذكره الحاكم في المستدرك، وعلق عليه الحاكم قال: وهِم

---

(١) نشرت في مجلة الإيمان التي كان يصدرها والدي الشيخ موسى اليعقوبي (رحمه الله) في النجف: العدد٣ – ٤ من السنة الأولى سنة ١٩٦٤ ص١٩٢.

مصعب الراوي في الحرف الأخير، فقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في جوف الكعبة.

وتجد في كتاب الغدير للأميني روايات هذه المنقبة ومصادرها المتواترة من كتب العامة والخاصة ومن خلدها في شعره.

وهذه المنقبة وإن كانت تذكر لوليد الكعبة أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو لها أهل – فهو (عليه السلام) ولد في بيت الله الحرام واستشهد في بيت الله الحرام وسجل هذه الفضيلة كثير من الشعراء منهم المرحوم جدي الشيخ محمد علي اليعقوبي، إذ يقول:

بأول بيت جاء لله ساجداً وفاز بلقياه برابع مسجدِ

إلا أننا ينبغي أن لا نغفل الطرف الآخر بها – فالكرامة ليست فقط للمولود وإنما للوالدة أيضاً، هذا الذي جعلنا نذكر هذه المرأة في مثل هذه المناسبة – وهي الوالدة الطاهرة الكريمة – فإن الله سبحانه وتعالى أذن لها في أن تلد داخل الكعبة المشرفة - على الله تعالى جليلة القدر.

وممن سجل هذه اللفتة – ذكر الوالدة وليس فقط المولود - العلامة الجليل المرحوم السيد إسماعيل الشيرازي – ابن عم المرجع السيد الشيرازي الذي كان في سامراء صاحب فتوى التتن المشهورة ووالد المرحوم السيد الهادي الشيرازي أحد مراجع التقليد في النجف توفي سنة ١٩٦٢م، في قصيدته الميلادية التي ألقاها في حفل مهيب بين يدي السيد المجدد العظيم الشيرازي وجمع غفير من العلماء والأدباء في مدينة سامراء، عندما كانت يوم ذاك عاصمة العلم وكعبة الوفاد عندما انتقل إليها المجدد، وقد نقل إن السيد الشيرازي نفسه شغف بالقصيدة وأفتتن بها لما ألقيت، فقام وقعد واضعاً يديه على رأسه وهو يقول: إي والله ... إي والله، وأنا أذكر هنا بعض المقاطع منها لأحيي ذكرى هذه المرأة الجليلة ومولودها العظيم:

رغـــد العيـش فزده رغـــــدا بسلاف منـــك تشفي سقـــمي

آنســت نفسـي من الكعبة نور مثلما آنـس موسى نـــار طور
يوم غشّى الملأ الأعلى سرور
شرع السمـع نـــداء كنـــــدا شاطئ الوادي طوى من حرم

ولدت شمس الضحى بدر التمـــام فانجلت عنـــا دياجير الظلام
نادِ: يا بشـــراكمُ هذا غلام
وجـــهـه فلقـــة بـدرٍ يهتدى بسنـــا أنـــواره في الظـــلمِ

هـــذه فاطمـــة بنـــت أســـد أقبـــلت تحملُ لاهـوت الأبد
فاسجدوا ذلاً له فيمن سجد
فله الأمـــلاكُ خـــرّت سجّدا إذ تجـــلّى نـــــــورهُ في آدمِ

هل درت أم العلى ما وضـــعت أم درت ثدي الهـــدى ما أرضعت
أم درت كف النهى ما رفعت
أم درى رب الحجى ما ولدا جـــلّ معنـــاه فلمّـــا يعلمِ[1]

هذه هي فاطمة بنت أسد، اختارها الله تبارك وتعالى لتحتضن وترى أعظم رجلين في تاريخ البشرية بل سادة الخلق أجمعين، رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام)، كانت امرأة مؤمنة عارفة وعت علوم الأنبياء قبل الإسلام كزوجها أبي طالب، ففي الكافي عن عبد الله بن مسكان قال: قال أبو عبيد الله (عليه السلام): إن فاطمة بنت أسد جاءت إلى

(١) توجد القصيدة في مقدمة كتاب المكاسب التي كتبها السيد محمد كلانتر (رحمه الله) ج١/ ١٣٦ وما بعده.

أبي طالب تبشره بمولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال لها أبو طالب: اصبري لي سبتاً (السبت ثلاثون سنة) آتيك بمثله إلا النبوة (الكافي)[١]، وعن الصادق (عليه السلام) أنه قال: لما ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتح لآمنة بياض فارس وقصور الشام، فجاءت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين إلى أبي طالب ضاحكة مستبشرة، فأعلمته ما قالت آمنة، فقال لها أبو طالب: وتتعجبين من هذا، إنك تحبلين وتلدين بوصيه ووزيره[٢].

وهذا قبل ذلك بثلاثين عاماً، فهذه العلوم كانت موجودة قبل النبوة وكان الأحبار والرهبان يتداولون هذه الأخبار.

وكانت كثيرة العتق للعبيد حتى قبل البعثة فقد روي عن حكيم بن حزام **قال: إنها أعتقت أربعين محرراً في الجاهلية، فسألت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هل لي فيهم أجر؟ - وهذا السؤال دليل على أن هذه المرأة تريد أن** تكرس كل حياتها وكل أعمالها لطاعة الله – فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): **أسلمت على ما سبق لك من الخير[٣]. وهذا شاهد آخر على توحيدها وإيمانها قبل البعثة، لأن العتق لا يثاب عليه الشخص إلا إذا نواه قربة إلى الله تعالى، فاستحقاقها للأجر على عملها السابق يعني صدوره قربة إلى الله تعالى، فكانت هي وآمنة بنت وهب وأبو طالب وعبد الله والد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجده عبد المطلب على دين إبراهيم (عليه السلام) وملته الحنيفية، لا ما يقوله الآخرون من أنهم كانوا مشركين وهو إسفاف بمقام النبي وآبائه.**

روي أنه نزل جبرئيل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا محمد، ربك يقرئك السلام ويقول لك: إني حرمت النار على صلبٍ أنزلك،

---

(١) الكافي كتاب الحجة باب مولد أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ٤٥٢/١.

(٢) المصدر السابق: ٤٥٤/١.

(٣) المعجم الكبير للطبراني: ١٩٠/٣.

وعلى بطن حملك وعلى حجر كفلك[١]، فأما الصلب الذي أنزلك فصلب عبد الله بن عبد المطلب، وأما البطن الذي حملك فآمنة بنت وهب، وأما الحجر الذي كفلك فعبد مناف أبن عبد المطلب وفاطمة بنت أسد.

بعد هذا كله لا نحتاج أن ندافع عن إيمان أبي طالب، أو أن نثبت أن فاطمة بنت أسد هي من السابقين للإسلام، وأنها الشخص الحادي عشر من السابقين للإسلام - كما يقول في مقاتل الطالبيين - فإنهم قد مُلئوا إيماناً قبل البعثة، فماذا تتوقع أن يكون موقفهم بعد أن صدع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإسلام وأعلن دعوته المباركة؟

ومن حسنات فاطمة بنت أسد أنها دليل دامغ على إيمان أبي طالب، يلقي الحجة البالغة على كل من شكك في ذلك، وبه احتج أمير المؤمنين (عليه السلام) حين سئل عن إسلام أبي طالب فقال (عليه السلام): وا عجباً، إن الله تعالى نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقرّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات[٢] – فلو كان أبو طالب مشركاً لفصل بينه وبين زوجته المؤمنة، فإبقاؤها عنده دليل إيمانه – ولم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ممن يجامل، فقد فرّق بين زينب (ابنته أو ربيبته) وزوجها أبي العاص بن الربيع لأنه بقي على شركه.

أنجبت فاطمة للإسلام ولله تبارك وتعالى ذرية طيبة نشرت كلمة الله تعالى وروت شجرة الإسلام بدمائهم، وأولهم ولدها المبارك أمير المؤمنين (عليه السلام)، وثانيهم أخوه جعفر الطيار شهيد مؤتة، واستشهد ولداه محمد وعون في معارك الإسلام الخالدة التي أعقبت وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله

---

(١) الكافي:١/٤٤٦.

(٢) بحار الأنوار:٣٥/١٥٧.

وسلم)، وولدها الآخر وهو عقيل والد سفير الحسين (عليه السلام) مسلم بن عقيل.

وقد ارتبط اسم فاطمة بنت أسد بمعركة الطف، فإن جميع شهداء بني هاشم في معركة الطف وهم سبعة عشر كلهم ذريتها، ذكر ذلك الإمام الباقر (عليه السلام)، فقد ذكر عند الإمام الباقر (عليه السلام) قتل الحسين (عليه السلام)، فقال: قتلوا سبعة عشر إنساناً كلهم ارتكض من بطن فاطمة بنت أسد أمّ علي (عليه السلام)، وإلى هذا أشار الشاعر، قال:

تسعة منهمُ لصلب عليٍّ وثمـــان لجعفرٍ وعقيلِ

اهتمت برعاية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ أن كفله زوجها أبو طالب بعد وفاة جده عبد المطلب وهو طفل صغير، وكانت تفضله على أولادها، شهد لها بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد روي – في كنز العمال – عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها كانت أحسن خلق الله صنيعاً إلي بعد أبي طالب، وأنه قال: رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعينني وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك وتطيبيني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة. ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم): اللهم أغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبله يا أرحم الراحمين.

وما كانت رعايتها له (صلى الله عليه وآله وسلم) عن عاطفة، فإن المفروض أن تكون عاطفتها تجاه أولادها أقوى، بل كانت هذه الرعاية عن وعي وإدراك للمقام الرفيع الذي تبوءه هذا الرجل (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه.

ولما هاجر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة وأمر علياً (عليه السلام) أن يلحقه بالفواطم (فاطمة بنت أسد بن هاشم وفاطمة الزهراء وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب) فخرج

بهن أمير المؤمنين (عليه السلام) راجلاً، واعترضه عدد من فرسان قريش، فقتل أشجعهم (يسمى جناح) وتفرقوا عنه وأمه تنظر إليه وهي فخورة به، حتى وصلوا إلى المدينة بعد ذلك السفر المضني، وكانت امرأة قد تجاوزت السبعين من العمر – لأن عمر طالب أكبر أبناءها كعمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين الهجرة، وهو ٥٣ عاماً، فلا أقل يكون عمرها ٧٠ سنة – ولم يقعدها عن أداء دورها كبر السن وقد تجاوزت السبعين وطول المسافة- حوالي أكثر من عشرة أيام - وصعوبة السفر والأخطار التي كانت تحيط بهذه السفرة، لأن قريشا بعد أن أفلت منها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم تكن ترضى بأن تلحقه عائلته وفي وضح النهار وعلى مرأى منهم – لذلك تصدوا للإمام علي (عليه السلام).

كانت امرأة ذات أذن واعية -كما يصف القرآن ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٢) – تتلقى العلم مباشرة من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روي أنها (رضوان الله تعالى عليها) قالت: (سمعت رسول الله وهو يقول: إن الناس يحشرون يوم القيامة عراة كما ولدوا فقالت: واسوأتاه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: فإني أسأل الله أن يبعثك كاسية. وسمعته يذكر ضغطة القبر، فقالت: واضعفاه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: فإني أسأل الله أن يكفيك ذلك)[1].

وفي كتاب تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين عن الزبير بن العوام قال: (سمعت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو النساء إلى البيعة حين أنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ..﴾(الممتحنة:١٢) وكانت فاطمة بنت أسد أول امرأة بايعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم))[2].

---

(١) ميزان الحكمة: ٤٥٣/٣.

(٢) تنبيه الغافلين: شرف الإسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت٤٩٤)، ص١٧٢.

ومن هذه السيرة المباركة تستطيع المرأة المسلمة أن تأخذ عدة دروس منها:

أولاً: طلب العلم والمعرفة والسعي نحو الكمال، فترى فاطمة تأخذ العلم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة.

ثانياً: تلبية نداء الدين وداعي الله – ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ (الأحقاف:٣١) – مهما كان الثمن غالياً – وذكرنا شاهداً على ذلك هجرتها.

ثالثاً: عدم الانسياق نحو العواطف وجعلها معيار التفضيل في العلاقات، بل توزن الأمور بالتقوى، فنراها تفضل محمداً على أولادها، لأنه بالموازين الصحيحة أكرم وأجلّ منهم، فتقدمه (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم، بل تقدمه على أنفسها كما شهد لها رسول الله نفسه فيقول تجوع وتطعمني وتعرى وتكسيني... .

رابعاً: العناية بالأسرة وتوثيق روابطها وبناءها بشكل سليم، وهذا واضح من علاقتها بزوجها أبي طالب وأولادها النجباء.

خامساً: عدم الانصياع وراء العرف والأتكيت السائد، فرغم أن النساء في مجتمع قريش كان لهن أعراف وتقاليد معروفة، إلا أن فاطمة لم تتابعهم فيه إلا بمقدار ما ينسجم مع عقيدتها والسلوك الذي يرسمها لها الشرع المقدس سواء قبل الإسلام وبعده.

وقد حث الأئمة (عليهم السلام) على الاستشفاع بها؛ فعن داود الرقي قال: دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) ولي على رجل مال قد خفت فوته، فشكوت إليه ذلك، فقال لي: إذا صرت بمكة فطف عن عبد المطلب وصلّ ركعتين عنه، وطف عن أبي طالب طوافاً وصلّ عنه ركعتين، وطف عن عبد الله – والد رسول الله – طوافاً وصلّ عنه ركعتين، وطف عن آمنة طوافاً وصلّ عنها ركعتين، وطف عن فاطمة بنت أسد طوافاً وصلّ عنها ركعتين، ثم ادعُ أن يرد

عليك مالك. قال: ففعلت ذلك، ثم خرجت من باب الصفا، وإذا غريمي واقف بالباب يقول: يا داود حبستني، تعال اقبض مالك[1].

وقد تضمن حديث وفاتها الكثير من فضلها وعظيم منزلتها عند الله تعالى وعند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فعن عبد الله بن عباس قال: أقبل علي بن أبي طالب ذات يوم إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) باكياً وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا علي مَه. فقال: يا رسول الله، ماتت أمي فاطمة بنت أسد، قال: فبكى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال: رحم الله أمك يا علي، أما إنها إن كانت لك أماً فقد كانت لي أماً، خذ عمامتي هذه، وخذ ثوبي هذين فكفنها فيهما، ولا تخرجها حتى أجيء فألي أمرها، قال: فأقبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ساعة، وأخرجت فاطمة أم علي، فصلى عليها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صلاة لم يصل على أحد قبلها مثل تلك الصلاة، ثم كبر عليها أربعين تكبيرة ثم دخل إلى القبر فتمدد فيه فلم يسمع له أنين ولا حركة، ثم قال: يا علي أدخل، يا حسن أدخل، فدخلا القبر؟ فلما فرغ مما احتاج إليه من علي، قال: يا علي أخرج، يا حسن أخرج، فخرجا؟ ثم زحف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى صار عند رأسها ولقنها حجتها تفصيلاً، ثم قال: اللهم ثبت فاطمة بالقول الثابت ثم خرج من قبرها.. فقام إليه عمار بن ياسر فقال: فداك أبي وأمي يا رسول الله، لقد صليت عليها صلاة لم تصلّ على أحد قبلها مثل تلك الصلاة، فقال: يا أبا اليقظان، وأهل لذلك هي، ولقد كان لها من أبي طالب ولد كثير، ولقد كان خيرهم كثيراً، ثم قال: فكانت تشبعني وتجيعهم (أي أولادها) وتكسوني وتعريهم وتدهنني وتشعثهم. فقال: - أي عمار – فلمَ كبّرت عليها أربعين تكبيرة يا رسول الله، قال نعم يا عمار، التفت

---

(١) بحار الأنوار:١١٢/٣٥.

عن يميني فنظرت إلى أربعين صفاً من الملائكة، فكبرت لكل صفٍّ تكبيرة، قال: فتمددت في القبر ولم تسمع لك أنين ولا حركة؟ قال: إن الناس يحشرون يوم القيامة عراة، فلم أزل أطلب إلى ربي عزّ وجلّ أن يبعثها ستيرة، ثم وصف (صلى الله عليه وآله وسلم) ما أُعدّ لها من المقام الكريم عند الله تبارك وتعالى، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (والذي نفس محمد بيده ما خرجت من قبرها حتى رأيت مصباحين من نور عند رأسها ومصباحين من نور عند يديها ومصباحين من نور عند رجليها وملكيها الموكلين بقبرها يستغفرون لها إلى أن تقوم الساعة)[١].

وفي علل الشرايع أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كفنها في قميصه، ونزل في قبرها وتمرغ في لحدها، فقيل له في ذلك – أي لماذا هذا - فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): إن أبي هلك وأنا صغير فأخذتني هي وزوجها (أبو طالب) فكانا يوسعان علي ويؤثراني على أولادهما، فأحببت أن يوسع الله عليها قبرها[٢].

أما سنة وفاتها فلم يسجلها التاريخ، وترد أمامنا عدة احتمالات:

الأول: أنها توفيت قبل معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، ويؤيده أمور:

١- أنها امرأة كبيرة تجاوزت السبعين وواجهت مشاق كثيرة في هجرتها، فلا يحتمل بقاؤها طويلاً.

٢- أنه قد أسر ولدها عقيل في معركة بدر وفداه عمه العباس بن عبد المطلب، ولو كانت أمه حية لكان المناسب لأخلاق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إطلاق سراحه إكراماً لأمه كما أطلق ألد أعدائه النضر بن الحارث واستبقاه لصبيته.

---

(١) بحار الأنوار:٣٥/٧٠.

(٢) جامع أحاديث الشيعة كتاب الطهارة، أبواب تحنيط الميت وتكفينه، باب ١٧، ح٤-٦.

٣- لم يرد ذكرها في حديث زواج علي وفاطمة الذي وقع غرة ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة، وهو مشهد لا يفوتها.

الثاني: أنها توفيت في نهاية السنة الثالثة أو بداية الرابعة، بدليل ورود اسم حفيدها الحسن (عليه السلام) في خبر وفاتها، وقد ولد في النصف من رمضان في السنة الثالثة، ولم يرد اسم الإمام الحسين (عليه السلام) المولود في الثالث من شعبان من السنة الرابعة، ويستبعد أن يكون حياً ولا يحضر وفاة جدته.

الثالث: أنها توفيت بعد السنة السادسة للهجرة، لما ذكر من أنها أول امرأة بايعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد نزول آية الممتحنة المتقدمة التي يشهد سياقها أنها نزلت بعد صلح الحديبية بين السنة السادسة والثامنة من الهجرة. وقد ورد في رواية علل الشرايع في حديث وفاتها (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دفن فاطمة بنت أسد بن هاشم (عليها السلام)، وكانت مهاجرة مبايعة)[١]، فوصفها بالمبايعة يعني البيعة المذكورة، وليس طبعاً بيعة العقبة الأولى والثانية قبل الهجرة، فإنها خاصة بالأنصار.

والذي أميل إليه بحسب الوجدان هو الأول، مؤيداً بالظروف الموضوعية التي ذكرناها آنفا، أما الرواية التي يستند إليها القولان الثاني والثالث فتحمل على وهم الراوي، إضافة إلى ضعف السند. ويبعد القول الثالث خاصة ما ورد في حديث وفاتها أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كبر عليها أربعين تكبيرة ولم يصل على أحد قبلها مثل تلك الصلاة، فلابد أن يكون ذلك قبل معركة أحد؛ فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى على حمزة الذي استشهد فيها بسبعين تكبيرة[٢].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) وسائل الشيعة كتاب الطهارة أبواب الصلاة والجنازة باب ٦/ ج٣.

أسأل الله تعالى أن نكون قد أدّينا بعض الحق لهذه المرأة العظيمة ولولدها المبارك أمير المؤمنين، ونسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

رجب وشعبان إعداد وتأهيل لشهر رمضان[1]

المحاضرة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد في دعاء الإمام السجاد لتوديع شهر رمضان قوله (عليه السلام): (يَا مَنْ تَحَمَّدَ إلى عِبَادِهِ بِالإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، وَغَمَرَهُمْ بِالْمَنِّ وَالطَّوْلِ، مَا أَفْشَى فِينَا نِعْمَتَكَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنَّتَكَ، وَأَخَصَّنَا بِبِرِّكَ هَدَيْتَنَا لِدِينِكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَ، وَمِلَّتِكَ الَّتِي ارْتَضَيْتَ، وَسَبِيلِكَ الَّذِي سَهَّلْتَ، وَبَصَّرْتَنَا الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ، وَالْوُصُولَ إلى كَرَامَتِكَ) ثم يخص بالذكر منته تبارك وتعالى علينا بشهر رمضان التي هي من أعظم النعم فيقول: (اللَّهُمَّ وَ أَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَايَا تِلْكَ الْوَظَائِفِ، وَخَصَائِصِ تِلْكَ الْفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي اخْتَصَصْتَهُ مِنْ سَائِرِ الشُّهُورِ، وَتَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيعِ الأَزْمِنَةِ وَ الدُّهُورِ) إلى أن يقول (ثُمَّ آثَرْتَنَا بِهِ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، وَاصْطَفَيْتَنَا بِفَضْلِهِ دُونَ أَهْلِ الْمِلَلِ).

رجب وشعبان محطتا تدريب وتأهيل لشهر رمضان:

ونعمة عظيمة كهذه تتطلب إعداداً لتحملها واستثمارها كأفضل ما ينبغي، لذا كان شهرا رجب وشعبان محطتي تدريب وتأهيل للدخول في شهر رمضان يتسامى فيهما المؤمن ويتكامل ويقترب من الله تبارك وتعالى ليدخل في ضيافة الله وهو على أتم الاستعداد، أما الذي يدخل شهر رمضان من دون إعداد فسيجده ثقيلاً خاوياً من السمو الروحي، ويحتاج إلى مرور أيام منه

---

(١) كلمة ألقاها سماحة الشيخ (دام ظله الشريف) بمناسبة حلول شهر رجب ١٤٢٣هـ الموافق ٢٠٠٢/٩/٨ م.

ليتفاعل معه، فيخسر بركة هذه الأيام وعطاياها وهي خسارة لا تعوض فإن لكل يوم من شهر رمضان مِنَحاً إلهية خاصة به.

المماثلة بين أعمال الأشهر الثلاثة:

من هنا تجد المماثلة بين أعمال الأشهر، الثلاثة فيستحب فيهما الغسل، وتشترك بالصوم حتى استحب صوم شهري رجب وشعبان جميعاً ووصلهما بشهر رمضان، وبالدعاء والصدقة ووجود صلوات وأدعية مخصوصة لليالي والأيام، وتتوزع فيها أيام مباركة لمضاعفة الأجر ولتعجيل التكامل وتسريعه كالأول والنصف من رجب وليلة الرغائب وهي أول ليلة جمعة من رجب وليلة المبعث ويومه والنصف من شعبان، كما أن الليالي البيض لها جميعا (١٣ و١٤ و١٥) لها أعمال مشتركة بعضها يكمل بعضاً، كما أنها تشترك جميعاً في أعمال خاصة لليوم الأخير منها وهذه المماثلة في الأعمال لها أثر بليغ في تعويد الإنسان على هذه الأعمال الشاقة (هي النفس ما عودتها تتعود) وجعل العمل عادة يقرب الإنسان من الالتزام به ويخفف من مشقته، كاستحباب تمرين الأطفال على التكاليف الشرعية قبل البلوغ بمدة.

علامات الإعداد والتأهيل:

والإعداد والتأهيل للمؤمن تجده واضحاً في هذين الشهرين لو التفتنا إلى عدة أمور:-

١- التدريجية في الأعمال كماً وكيفاً فيكون شعبان أكثر وأهم أعمالاً من رجب، وإن شهر رمضان أعماله أشد وأهم من شعبان، ومعها تتصاعد الهمة لأداء هذه الأعمال، فقبل شهر رجب قد يجد الإنسان صعوبة وضيقاً نفسياً من الصوم ولو يوماً واحداً، فإذا حلّ رجب تولدت الرغبة لديه لصوم عدد من الأيام وربما كله وتكون الهمة أكبر في شعبان وهكذا.

٢- ازدياد تركيز المعصومين (عليهم السلام) على فضل الأشهر كلما تقدم المؤمن فيها، فشعبان أفضل من رجب، وشهر رمضان أفضل من شعبان، ليزداد اهتمام المؤمن وتوجهه إلى الطاعة كلما يشعر بأن الفضل والثواب يزداد، حيث نسب شهر رجب في بعض الروايات إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وشهر شعبان لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وشهر رمضان لله تبارك وتعالى، وتشهد لهذا المعنى ما ورد في دعاء الإمام السجاد في شعبان (وهذا شهرُ نبيك سيدِ رُسُلِك شعبان الذي حفَفتَه مِنكَ بالرحمةِ والرضوانِ).

٣- جعل أهم عمل فيهما هو الاستغفار والصدقة بل إن شهر رجب خص باسم شهر الاستغفار فعن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): رجب شهر الاستغفار لأمتي فأكثروا فيه الاستغفار فإنه غفور رحيم ويسمى رجب الأصب لأن الرحمة على أمتي تصب صباً فيه فاستكثروا من قول: استغفر الله واسأله التوبة)، وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ما أفضل ما يفعله فيه (أي شعبان) قال: الصدقة والاستغفار ومن تصدق بصدقة في شعبان رباها الله تعالى كما يربي أحدكم فصيله حتى يوافي يوم القيامة وقد صار مثل أحد)[1].

أثر الصدقة والاستغفار في تنقية القلب

ونحن نعلم اثر هذين العملين في تنقية قلب المؤمن وتهذيب نفسه لتتأهل للكمال، كالأرض إذا أريد لها أن تنتج ثماراً طيبة فلا بد أولاً من تنقية الأرض وتنظيفها من الشوائب، وهكذا النفس والقلب فإنهما قد تكدرا خلال السنة باتباع الهوى والخوض في أمور الدنيا مما يجعلهما غير مؤهلين لاستقبال النفحات الإلهية في شهر رمضان، فلا بد من تطهيرهما وتهذيبهما بالصدقة خصوصاً صدقة السر التي تطفئ غضب الرب كما في بعض الأحاديث، والاستغفار

---

(١) مفاتيح الجنان.

خصوصاً مع الالتفات إلى المعنى الحقيقي للاستغفار الذي شرحه أمير المؤمنين (عليه السلام) لرجل قال بحضرته: (أستغفر الله) فقال له (عليه السلام): (إن الاستغفار يقع على ستة معانٍ، أولها: الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم (المادية والمعنوية)[1] .. والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان..، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله)[2].

٤- إنك تجد في أعمال هذين الشهرين الإكثار من الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله بل قد كرست أدعية لذلك ومنها الصلوات المروية في الأعمال العامة لشهر شعبان (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ شَجَرَةِ النُّبُوَّةِ وَمَوْضِعِ الرِّسَالَةِ... إلخ)، ومن الواضح أن محمداً وآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هم واسطة الفيض الإلهي[3] وأبواب رحمته ولا يصل الإنسان إلى الكمال إلا بولايتهم، فيكون من الضروري الإكثار من الدعاء لهم والتوسل بهم لرفع مستوى التأهيل والاستعداد لتقبل الإفاضات الإلهية، وفي

---

(١) المادية: من أموال وأغراض ونحوها، والمعنوية: كرد اعتبار من أسأت إليه أمام الآخرين بأن تعتذر له وتعترف بخطأك أمامهم.

(٢) نهج البلاغة: الجزء الرابع، صفحة ٩٧.

(٣) فكل ما يصل إلينا من علم ورحمة ورزق وعافية وقوة و..فهو عن طريقهم (عليهم السلام) كما جاء في الزيارة الجامعة (بكم فتح الله وبكم يختم، وبكم يُنزّل الغيث، وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبكم ينفّس الهم ويكشف الضر) فينبغي علينا أن لا نغفل عن هذا المعنى المهم لكي تكون علاقتنا بهم (عليهم السلام) أوثق وأمتن ولكي نؤدي حقوقهم المفروضة علينا بالمستوى المطلوب.

الحديث المروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): (صلاتكم عليّ مجوزّة لدعائكم ومرضاة لربكم وزكاة لأبدانكم)[١].

٥- الانتباه من الغفلة والتحذير منها من خلال تركيز الدعاء بالوقاية منها والاستعاذة بالله من الابتعاد عنه كقوله (عليه السلام): (ولا تجعلني من الغافلين المبعدين)[٢] وقوله (عليه السلام): (ولا تكلنا إلى غيرك) (اللهم إني أسألك أن تجعل لي إلى كل خير سبيلاً ومن كل ما لا تحب مانعا يا ارحم الراحمين) وتستمر هذه الصحوة من الغفلة ليدخل شهر رمضان وهو في التفات كامل وذكر دائم لله تبارك وتعالى.

٦- استثارة أسباب الرحمة والعطف عند الله تعالى ليقبلنا الله تبارك وتعالى عبيداً تائبين عائدين إليه، وتجد هذا المعنى واضحاً من خلال الأدعية وبأشكال متعددة كالتسليم بغنى الله وفقر الإنسان كقوله (عليه السلام): (اللهم أنت العلي العظيم وأنا عبدك البائس الفقير أنت الغني الحميد وأنا العبد الذليل اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأمنُن بغناك على فقري وبحلمك على جهلي وبقوتك على ضعفي يا قوي يا عزيز)، وكالاعتراف بأن لا ملجأ منه تبارك وتعالى إلا إليه (خَابَ الْوَافِدُونَ عَلَى غَيْرِكَ، وَ خَسِرَ الْمُتَعَرِّضُونَ إِلا لَكَ، وَ ضَاعَ الْمُلِمُّونَ إِلاّ بِكَ، وَ أَجْدَبَ الْمُنْتَجِعُونَ إِلاّ مَنِ انْتَجَعَ فَضْلَكَ)، وكالتوسل إليه بأحب أسمائه إليه (اللهم يا ذا المنن السابغة و الآلاء الوازعة والرحمة الواسعة و القدرة الجامعة والنعم الجسيمة و المواهب العظيمة والأيادي الجميلة و العطايا الجزيلة يا من لا ينعت بتمثيل و لا يمثّل بنظير و لا يغلب بظهير) إلى أن يقول (عليه السلام): (يا من سما في العز ففاق نواظر الأبصار ودنا في اللطف فجاز هواجس الأفكار يا من توحد بالملك فلا ندّ له في ملكوت سلطانه وتفرد

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/٩١.

(٢) مفاتيح الجنان، الفصل الأول: في فضل شهر رجب وأعماله، القسم الأول: الأعمال العامة، الدعاء الثاني.

بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه يا من حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الأوهام وانحسرت دون إدراك عظمته خطائف أبصار الأنام) إلى أن يقول: (أسألك بهذه المدحة التي لا تنبغي إلا لك..) إلخ.

المعصومون يهيئون شيعتهم في هذين الشهرين

وقد كان المعصومون (عليهم السلام) يهيئون شيعتهم في هذين الشهرين لاستقبال شهر رمضان وهم على أحسن حال فعن أبي الصلت الهروي قال: (دخلت على الإمام الرضا (عليه السلام) في آخر جمعة من شعبان فقال لي: يا أبا الصلت إن شعبان قد مضى أكثره وهذه آخر جمعة فيه فتدارك فيما بقي تقصيرك فيما مضى منه وعليك بالإقبال على ما يعنيك[1] وأكثر من الدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن وتُب إلى الله من ذنوبك ليُقبل شهر رمضان إليك وأنت مخلص له عز وجل ولا تدعن أمانة[2] في عنقك إلا أديتها ولا في قلبك حقداً على مؤمن إلا نزعته ولا ذنباً أنت مرتكبه إلا أقلعت عنه واتق الله وتوكل عليه في سر أمرك وعلانيتك. ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً وأكثِرْ في ما بقي من هذا الشهر قول: اللهم إن لم تكن غفرت لنا فيما مضى من شعبان فأغفر لنا فيما بقي منه، فأن الله تبارك وتعالى يعتق في هذا الشهر رقاباً من النار لحرمة هذا الشهر)[1] وهي وصية جليلة ينبغي مراعاتها على الدوام وتصلح أن تكون نبراساً لسلوك المؤمن.

---

(١) فإن أكثر أعمارنا تضيع في أمور تافهة وفارغة وفضولية لا تعنينا.

(٢) والأمانة تفهم على عدة مستويات فالمسؤولية المناطة بنا كحوزويين هي أمانة يجب أن نؤديها بتمامها.

(١) بحار الأنوار: ٧٢/٩٤.

فضل شهر رجب

وللتنبيه إلى فضل هذا الشهر (رجب) والأعمال الواردة فيه أنقل بعض الأحاديث عن المعصومين فعن أبي الحسن (عليه السلام): (رجب شهرٌ عظيم يضاعف الله فيه الحسنات ويمحو فيه السيئات من صام يوماً من رجب تباعدت عنه النار مسيرة مائة سنة ومن صام يوماً من ثلاثة أيام وجبت له الجنة)[١] وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (من صام يوماً من رجب إيماناً واحتساباً جعل الله تبارك وتعالى بينه وبين النار سبعين خندقاً عرض كل خندق ما بين السماء والأرض)[٢] وعن أبي الحسن (عليه السلام): (رجب نهرٌ في الجنة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل من صام يوماً من رجب سقاه الله من ذلك النهر)[٣] وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (ومن أحيا ليلة من ليالي رجب أعتقه الله من النار وقبل شفاعته في سبعين ألف رجل من المذنبين ومن تصدق بصدقةٍ في ابتغاء وجه الله اكرمه الله يوم القيامة في الجنة من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٤] .

وعن سالم بسندٍ معتبر قال دخلت على الصادق (عليه السلام) في رجب وقد بقيت منه أيام فلما نظر قال لي: (يا سالم هل صمت في هذا الشهر شيئاً قلت لا والله يا ابن رسول الله فقال لي فقد فاتك من الثواب ما لم يعلم مبلغه إلا الله عز وجل، إن هذا الشهر قد فضّله الله وعظّم حرمته وأوجب للصائمين فيه كرامته، قال فقلت له: يا ابن رسول الله فإن صمتُ مما بقي منه شيئا هل أنال فوزاً ببعض ثواب الصائمين فيه؟ فقال: يا سالم من صام يوماً من آخر هذا الشهر كان ذلك أماناً من شدة سكرات الموت وأماناً له من هول المطلع

---

(١) من لا يحضره الفقيه: الجزء الثاني، باب: ثواب صوم رجب، ص٩٢، ح ١٨٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٩٤.

(٣) المصدر السابق: صفحة ٣٧.

(٤) المصدر السابق: صفحة ٣٣.

وعذاب القبر، ومن صام يومين من آخر هذا الشهر كان له بذلك جوازاً على الصراط، ومن صام ثلاثة أيام من آخر هذا الشهر أمن يوم الفزع الأكبر من أهواله وشدائده وأعطي براءة من النار)[١].

فضل شهر شعبان

ومن أحاديث فضل شهر شعبان: ما عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من صام يوماً من شعبان إيماناً واحتساباً غفر له)[٢] وما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام): (وما من عبدٌ يكثر الصيام في شعبان إلا أصلح الله أمر معيشته وكفاه شر عدوه، إن أدنى ما يكون لمن يصوم يوماً من شعبان أن تجب له الجنة)[٣] وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (كان السجّاد (عليه السلام) إذا دخل شعبان جمع أصحابه وقال: يا أصحابي أتدرون ما هذا الشهر؟ هذا شهر شعبان، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: شعبان شهري فصوموا هذا الشهر حباً لنبيّكم وتقرباً إلى ربكم، أقسِمُ بمن نفسي بيده لقد سمعت أبي الحسين يقول سمعت أمير المؤمنين يقول: من صام شعبان حباً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقرباً إلى الله أحبّه الله وقرّبه إلى كرامته يوم القيامة وأوجب له الجنة)[٤].

اهتمام السلف الصالح بهذين الشهرين:

ولأهمية هذين الشهرين كان السلف الصالح يستعدون لهما قبل حلولهما، ويستعدون لليالي والأيام الخاصة الشريفة قبل حلولها أيضاً لكي لا

---

(١) المصدر السابق: صفحة ٣٢.

(٢) المصدر السابق: صفحة ٣٤.

(٣) المصدر السابق: صفحة ٦٨.

(٤) المصدر السابق: صفحة ٨٢.

يفوتهم شيء من الثواب، فيسجلون في صحيفة خاصة أعمال الشهر، ويقسمونها إلى قسمين عامة وخاصة، فالعامة ما تكون مشتركة لجميع أيام الشهر ولياليه، والخاصة ما تختص ببعض هذه الأيام. وقد كفانا الشيخ صاحب مفاتيح الجنان (قدس سره) مؤونة البحث فجمعها وبوّبها وصنّفها، لكن هذا لا يعفينا من الاستعداد لاستقبال هذه الأشهر المباركة بأن نسجل نحن أيضاً عناوين هذه الأعمال في ورقة خاصة لتكون لنا دليلاً خلال الشهر، ولنذكّر أنفسنا بهذه الأعمال فإن إضاعة الفرصة غصة، وما يدرينا أننا باقون أحياء حتى رجب المقبل وكم شخص كان معنا في رجب الماضي وهو ليس معنا اليوم؟.

فعلينا أن لا نقصر قبل أن يأتينا الأجل ونقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ ويأتيهم الجواب: ﴿ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُون﴾[1] (المؤمنون:٩٩).

أما انتم فكأنه قيل لكم نعم أرجعوا إلى الدنيا وها انتم فيها لننظر كيف تعملون.

أهم أعمال رجب وفضلها:

والأعمال في هذا الشهر كثيرة منها الغسل والصدقة والاستغفار والدعاء بأدعية مأثورة، ومنها: زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) خصوصاً في الأول والنصف منه، ففيهما زيارتان عظيمتان يغفل أكثر الناس عن ثوابها ولأجل هذه الغفلة سميت زيارة النصف من رجب بالغفيلة، أما زيارة أول رجب فقد ورد

---

(١) جاء في إرشاد القلوب ص٤٩: (يعني فيما تركته ورائي لورّاثي فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ فيقول له ملك الموت كَلا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها، أي كلا لا رجوع لك إلى دار الدنيا، و قوله إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها: أي قال هذه الكلمة لما شاهده من شدة سكرات الموت و أهوال ما عاينه من عذاب القبر و هول المطلع و من هول سؤال منكر و نكير قال الله تعالى: ﴿وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾).

فيها عن الأمام الصادق (عليه السلام) (من زار الحسين صلوات الله عليه في أول يوم من رجب غفر الله له ألبتة)[1] وعن أبن أبي نصر أنه قال سألت الرضا (عليه السلام): (أي الأوقات أفضل أن نزور فيه الحسين (عليه السلام)؟ قال: النصف من رجب والنصف من شعبان)[2].

وقد تناقش في صحة بعض الأحاديث المتقدمة إلا أن ضعف سندها مجبور بما يعرف عند الفقهاء بـ(أحاديث من بلغ) وهي معتبرة السند مضمونها (أنه من بلغه شيء من الثواب على عمل فعمله طلباً لذلك الثواب كتب له وإن لم نقله) وهذا طبعاً من حسن الظن بالله تعالى والله عند حسن ظن عبده.

ومن أهم أعمال هذا الشهر الصوم فقد وردت في فضله أحاديث كثيرة، وأيامه على درجات متفاوتة في الفضل والأيام التي لها فضلٌ خاص اكثر من غيرها، اليوم الأول والأيام البيض(١٣، ١٤، ١٥) ويوم المبعث (٢٧) والأيام الثلاثة الأخيرة من الشهر، فهذه أيام ثمانية لنعقد العزم على أن لا نفرط في صومها إلا لعذر فمن أراد الزيادة فالخميس والجمعة من كل أسبوع، وإذا أراد الزيادة فليضف الاثنين، ومنتهى الفضل أن يصوم الشهر كله.

ومن ألأعمال التي يمكن الالتزام بها في شهر رجب صلاة ركعتين في كل ليلة بالحمد والكافرون ثلاث مرات والتوحيد فإذا سلم رفع يديه إلى السماء وقال: (لا إله ألا الله وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو حيٌ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير وإليه المصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،اللهم صلِّ على محمد النبي الأُمي وآله) ويمرر يديه على وجهه.

---

(١) بحار الأنوار: ٨٩/٩٨.

(٢) المصدر السابق: صفحة ٩٦.

ضرورة عدم تحميل النفس فوق طاقتها

لكن يجب الالتفات إلى نقطة مهمة يؤكد عليها علماء الأخلاق وهي ضرورة عدم تحميل النفس فوق طاقتها[1] فتعصي وتتمرد ويصعب حين إذن تحميلها حتى القليل، فلا بد من أخذها برفقٍ وتدريجٍ فإن النفوس متفاوتة في الاستعدادات لتحمل الطاعات فلا يأخذكم الحماس والاندفاع فتحملوها ما لا تطيق وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (مرَّ بي أبي وأنا بالطواف وأنا حَدَثٌ وقد اجتهدت في العبادة، فرآني وأنا أتصابُّ عرقاً، فقال لي: يا جعفر يا بني إن الله إذا أحب عبداً أدخله الجنة ورضي عنه باليسير)[1]، وهذه وصية كل المربين وأساتذة الأخلاق والعمدة الإخلاص والتقوى.

اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا شهر رمضان وأعنا على الصيام والقيام وحفظ اللسان وغض البصر ولا تجعل حظنا منه الجوع والعطش يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

---

(١) عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): (إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالاً وَإِدْبَاراً فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ) بحار الأنوار: ٣٠/٨٤.

(١) الكافي: ٨٦/٢.

المحاضرة الثانية

ظواهر سلبية عند بعض زوار العتبات المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما هو أهله وصلى الله على نبيه والأئمة الميامين من آله وسلم تسليما كثيراً.

تتخلل شهري رجب وشعبان زيارات مخصوصة مهمة لمراقد المعصومين (عليهم السلام) ورد الحث عليها وذكر الثواب العظيم لمن أدّاها فلا ينبغي لطالب حرث الآخرة أن يفرط فيها ويقصر في تحصيلها قال تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[1] (الشورى:٢٠).

الفوائد المتحققة من زيارة المعصومين (سلام الله عليهم)

وتتحقق للمؤمنين فوائد عديدة في زيارات العتبات المقدسة والمواظبة عليها بعضها عامة باعتبارها من مساجد الله وقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (من اختلف إلى المساجد أصاب إحدى الثمان أخاً مستفاداً في الله أو علماً مستظرفاً أو آية محكمة أو رحمة منتظرة أو كلمة تدله

---

(١) جاء في أصول الكافي: ٤٣٦/١: (مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ قَالَ مَعْرِفَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) وَالأئمَّة، نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه، قَالَ: نَزِيدُهُ مِنْهَا قَالَ يَسْتَوْفِي نَصِيبَهُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِه مِنْها وَما لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ، قَالَ: لَيْسَ لَهُ فِي دَوْلَةِ الْحَقِّ مَعَ الْقَائِمِ نَصِيبٌ).

على هدى أو يترك ذنباً خشية أو حياءً)[1] وباعتبارها من بيوت الله التي ﴿أَذِنَ اللهُ أن تُرفَعُ ويُذكَرُ فيها اسمُه يُسبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّه وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيه الْقُلُوبُ وَالأَبْصارُ لِيَجزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ﴾ (النور: ٣٦-٣٧) ومن شعائر الله تعالى﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج:٣٢).

وبعضها خاصة فإن في زيارة المعصومين (عليهم السلام):-

١- إعلاء ذكرهم (عليهم السلام) وتعظيم شأنهم وإظهار فضلهم ومودتهم.
٢- استذكار سيرتهم ومواقفهم في نصرة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى وتجسيد شريعته في الأرض واستلهام الدروس والعبر منهم (عليهم السلام).
٣-إدخال السرور على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله (عليهم السلام).
٤- إعلان البراءة من أعدائهم ورفض الظلم الذي حل بهم (عليهم السلام).
٥- تجديد العهد معهم على السير على نهجهم وبذل الغالي والنفيس من أجل إحياء أمرهم وإدامة ذكرهم (سلام الله عليهم).

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢٣٧/١.

أعداء أهل البيت وزيارة القبور:

ولِعلمِ أعداء أهل البيت بهذه النتائج المهمة المتوخاة من الزيارة فقد حاولوا التشكيك بصحة زيارة القبور ووصفوها بالشرك[1]، وهم قبل غيرهم يعلمون بطلان هذه الدعوى، حيث يروون في صحاحهم زيارة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقبر آمنة بنت وهب وقبور البقيع، وزيارة أهل بيته كأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) لعدد من القبور، وكذا الصحابة ورووا التوسل والاستشفاع برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاته وغيرها لكن هدفهم صد المؤمنين بهذه الدعوى وغيرها من الأساليب عن الاغتراف من هذا المعين الذي لا ينضب ولكن يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1] (الصف:٨).

---

(١)جاء في كتاب دفاع عن العقيدة للشيخ علي البغدادي أن ابن تيمية يقول زيارة القبور كفر حتى قبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد رده صاحب الكتاب بوجود أحاديث في الصحاح تنص على جواز زيارة القبور منها قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (من زار قبري وجبت له شفاعتي) و(من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني) وغيرها كثير.

(١) عَنْ أبي الْحَسَنِ (عليه السلام) قَالَ: (سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّه تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّه بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، قَالَ: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ولايَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) بِأَفْوَاهِهِمْ، قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ قَالَ: يَقُولُ: وَاللَّهُ مُتِمُّ الإمامة وَ الإمامة هِيَ النُّورُ وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا﴾ قَالَ: النُّورُ هُوَ الإمَامُ) (ميزان الحكمة: ١١٦/١).

أثر زيارة المعصومين في حفظ الدين

وكان لزيارة المعصومين (عليهم السلام) الأثر الكبير في حفظ الدين وشعائره وديموميته فكلما اتسعت هذه الزيارات كما وكيفا كلما كان حال التدين جيداً في المجتمع، وكلما انحسرت هذه الزيارات وجدت ضعف الروح الدينية يسري في المجتمع، ولأجل هذا اهتم الأئمة بإحياء هذه الشعائر خصوصاً زيارة الحسين (عليه السلام) وجعلوا التقصير فيها نقصاً في الدين، وإن عدت من المستحبات لكن المستحبات هي الإطار والقشر الذي يحفظ اللب وهي الواجبات وان اللب يتلف ويفنى إذا زال القشر.

فضل زيارة الحسين (عليه السلام)

والمتحصل من عدد من الروايات أن زيارة الحسين (عليه السلام) تعدل الحج والعمرة والجهاد بل هي أفضل بدرجات، وتورث طول العمر والانحفاظ في النفس والمال وزيادة الرزق وقضاء الحوائج، ورفع الهموم والكربات، وتركها يوجب نقصاً في الدين وهو ترك حق عظيم من حقوق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (وأقل ما يؤجر به زائره هو أن يغفر ذنوبه وأن يصون الله تعالى نفسه وماله حتى يرجع إلى أهله، فإذا كان يوم القيامة كان الله له أحفظ من الدنيا)[1] وفي روايات كثيرة أن زيارته تزيل الغم وتهون سكرات الموت وتذهب بهول القبر وأنه إذا كان يوم القيامة تمنى الخلق كلهم أن كانوا من زواره (عليه السلام) لما يصدر منه (عليه السلام) من الكرامة والفضل في ذلك اليوم.

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب الحج، أبواب المزار، باب ٣٧: استحباب زيارة الحسين (عليه السلام).

وأريد أن انقل لكم يا زوار الحسين (عليه السلام) - هذه البشرى من الإمام الصادق (عليه السلام) فقد روي بإسناد معتبر عن الثقة الجليل معاوية بن وهب قال: (دخلت على الصادق (عليه السلام) وهو في مصلاه فجلست حتى قضى صلاته فسمعته وهو يناجي ربه ويقول: (يا من خصّنا بالكرامة ووعدنا بالشفاعة وحمّلنا الرسالة وجعلنا ورثة الأنبياء، وختم بنا الأمم السالفة وخصّنا بالوصية وأعطانا علم ما مضى وما بقي وجعل أفئدة الناس تهوي إلينا، اغفر لي ولإخواني وزوار قبر أبي الحسين بن علي (صلوات الله عليهما) الذين أنفقوا أموالهم وأشخصوا أبدانهم رغبة في برّنا ورجاءً لما عندك في وصلتنا وسروراً أدخلوه على نبيك محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وإجابة منهم لأمرنا وغيظاً أدخلوه على عدونا أرادوا بذلك رضوانك فكافئهم عنا بالرضوان واكلأهم بالليل والنهار واخلف على أهليهم وأولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف، واصحبهم واكفهم شر كل جبار عنيد وكل ضعيف من خلقك أو شديد وشر شياطين الإنس والجن وأعطهم أفضل ما أملوا منك في غربتهم عن أوطانهم وما آثرونا على أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم، اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم، فلم ينههم ذلك عن النهوض والشخوص إلينا خلافاً عليهم، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تَقَلَّبُ على قبر أبي عبد الله (عليه السلام) وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا، اللهم إني استودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى ترويهم من الحوض يوم العطش، فما زال (صلوات الله عليه) يدعو بهذا الدعاء وهو ساجد فلما انصرف قلت له: جعلت فداك لو أن هذا الذي سمعته منك، كان لمن لا يعرف الله لظننت أن النار لا تطعم منه شيئاً أبداً، والله لقد تمنيت أني كنت زرته ولم أحج فقال لي: ما أقربك منه فما الذي يمنعك من زيارته يا معاوية لا تدعو ذلك قلت: جعلت فداك فلم أدرِ أن الأمر يبلغ هذا كله فقال: يا

معاوية ومن يدعو لزواره في السماء أكثر مما يدعو لهم في الأرض، لا تدعه لخوفٍ من أحد فمن تركه لخوف رأى من الحسرة ما يتمنى أن قبره كان بيده، أي تمنى أن يكون قد ظل عنده حتى دفن هناك، أما تحب أن يرى الله شخصك وسوادك فيمن يدعو له رسول الله وعلي وفاطمة والأئمة المعصومون؟ أما تحب أن تكون غداً ممن تصافحه الملائكة؟ أما تحب أن تكون غداً ممن يأتي وليس عليه ذنب فيتبع به؟ أما تحب أن تكون ممن يصافح رسول الله (صلى الله عليه وآله))[1].

ولزيارة كل من المعصومين (عليهم السلام) فضل عظيم خاص تجد أخبارها في نهاية كتاب الحج من وسائل الشيعة وفي كتاب مفاتيح الجنان، فلا ينبغي تقليل أهمية زيارة بعض الأئمة كالعسكريين في سامراء فإنهم جميعاً بنفس الأهمية وإن كان لبعضهم خصوصية إضافية فعن زيد الشحام قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): ما لمن زار واحداً منكم ؟ قال: كمن زار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم))[2].

التصرفات المنحرفة لبعض زوار العتبات المطهرة

لكن هذه الأجواء القدسية لزيارة المعصومين يمكن أن تفسدها بعض التصرفات التي تصدر عن الجهل بآداب الزيارة، بل بآداب الدين وتشريعاته عموماً، وتنشأ عن النفس الأمارة بالسوء التي تقود صاحبها إلى الردى، ولا تفتر لحظة عن تزيين المعصية حتى في هذه الأماكن المقدسة، ويساعدها على ذلك شياطين الإنس والجن الذين لا يفترون عن إضلال عباد الله وصدهم عن الصراط المستقيم.

---

(١) الكافي: ٥٨٢/٤ باب: فضل الزيارات وثوابها.

(٢) المصدر السابق: صفحة ٢٧٩.

ولرفع هذا الجهل أقترح أن يتصدى في كل حافلة لنقل الزائرين شخص من طلبة الحوزة أو الشباب الواعين ليبين لهم خلال الطريق هذه الآداب والأحكام الشرعية المهمة، وينبههم إلى التصرفات المنافية للشريعة، والجميع مطالبون بأن يهتموا بوجود مثل هذا المرشد في القافلة قبل أن يسجلوا أسماءهم فيها، وليكن هذا الأمر أهم عندهم من نوع السيارة وراحة مقاعدها ووجود جهاز التبريد فيها ونوع الطعام وهكذا

وأذكر الآن باختصار بعض التصرفات المنحرفة التي تصدر من الزوار والتي تحبط أعمالهم وتنفي أجورهم فيعودوا إلى أهلهم خائبين والعياذ بالله وقد ذكرت في كتاب (رفقاً بالعتبات المقدسة) واستفتاء (رسالة إلى زوار العتبات المقدسة):

١- تبرج بعض النساء وإظهار زينتهن التي يحرم إبداؤها ويمكن أن نشير إلى عدة أشكال من الزينة المحرمة:

أ- وضع المساحيق على الوجه.

ب-إبراز الوجه إذا كان سبباً للفتنة.

جـ- لبس أغطية للرأس ذات نقوش وألوان ملفتة [١].

د- وضع الكحل على العينين وصبغ الأظافر.

وتتضاعف الحرمة والإثم بعدد الذين تورطوا في النظر إليهن أو دخل قلوبهم شيء بسببهن[٢].

---

(١) وقد يُلف هذا الغطاء بشكل بحيث تظهر الرقبة من الأمام أو الخلف وهذا كله حرام وغير مرضي لله تعالى ولرسوله وكل شعرة تكشفها المرأة بمنزلة السيف المشهور بوجه المعصومين (عليهم السلام) فالحذر الحذر يا مسلمات.

(٢) ويوجد كلام آخر للسيد الشهيد (قدس سره) بأن الحرمة تتضاعف بعدد الذين كان من المحتمل أن ينظروا إليها لأنها عندما خرجت كان لها الاستعداد لأن ينظر لها الجميع فتحاسب على قدر نيتها (لكل امرئ ما نوى).

٢- مزاحمة النساء والرجال والاحتكاك بينهم[١] خصوصاً قرب الأضرحة المقدسة وهو أمر مرفوض ويجب تلافيه إما بعزل الجنسين، أو عدم اقتراب النساء من الأضرحة، فليس من الضروري الوصول إلى الضريح المقدس فإن هذا التدافع عمل محرم وكيف يطاع الله بمعصيته وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لأهل العراق: (يا أهل العراق نبئت أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق أما تستحيون)[٢] وقال (عليه السلام): (لعن الله من لا يغار)[٣].

٣- عدم المحافظة على الحجاب الكامل فربما ظهرت خصلة شعر من مقدم الرأس أو شيء من المعصمين فوق الكفين، أو لم تلبس الجواريب هذا فضلاً عن الأسوء وهو الاكتفاء بملابس ضيقة للجسد وغطاء خفيف لشعر الرأس وما خفي أعظم.

٤- الأكل والشرب في الصحن الشريف للإمام (عليه السلام) وربما خففوا من مراسيم الزيارة واستعجلوا في أدائها للإسراع إلى موائد الطعام، وقد نهى عنه المعصومون (عليهم السلام) خصوصاً في زيارة الحسين (عليه السلام) ويتسبب أحياناً في وقوع محرمات عديدة كانتهاك حرمة المعصوم (عليه السلام) وانعقاد جلسات مختلطة للتسامر والضحك، وكأن المكان معد للنزهة والراحة،

---

(١) أود أن أضيف ظاهرة منتشرة في الأضرحة المطهرة وهي رمي الحلويات على الأرض مما يؤدي إلى انحناء النساء إلى الأرض لالتقاط هذه الحلويات فيرتطم الرجال بهن وقد يصل الأمر إلى وقوع الرجل فوق المرأة كل هذه المهزلة تحصل في أضرحة سادة الخلق بلا مراعاة لحرمتها فيجب على صاحب الحلويات عدم تسبيب هذه الأمور برميه الحلويات على الأرض بل عليه أن يوزعها على الزوار بهدوء واحترام لصاحب الضريح المطهر.

(٢) الكافي: ٥٣٦/٥، باب: الغيرة.

(٣) بحار الأنوار: ١١٥/٧٦.

وعادة يتركون الفضلات في نفس المكان فيزيد الأمر سوءاً، وربما سبب للزائرين بعض الأذى فليتناول الزائرون طعامهم في أماكن بعيدة عن النظر.

٥- النوم في الشوارع وفي أي مكان يحلو له بلا مراعاة أي أدب أو أصول، أو ربما انكشف شيء من جسد المرأة أثناء النوم وقد يحصل تقارب في أماكن نوم الجنسين، كما أن هذا الحال سبب لحصول النظر بريبة، وكل هذه محرمات فضيعة لا تبقى معها قيمة للزيارة بل تعود بالضرر على صاحبها.

٦- سفر النساء بلا ولي فتكون عرضة للغواية والانحراف، إما لسوء سريرتها أو لحاجتها إلى مساعدة غيرها فتضطر للاستعانة بالرجال إذا لم يكن معها أحد من ذويها، والإنسان بطبعه إذا لم يخش الرقيب تكون نفسه مصيدة للشيطان وحولها الذئاب المتربصون بها، بل بلغني أن عدداً من الشباب المتميعين يتحينون هذه المناسبات للسفر مع النساء فقبحهم الله من فسقة، وقد تطول السفرة أياماً لبعض سكان المدن البعيدة، وبسبب طول السفرة تحصل إلفة مع السائق وربما تبادلوا الكلمات الناعمة والابتسامات، فإلى أي حد يبلغ الشيطان بهؤلاء الذين يسمون أنفسهم زوار الحسين (عليه السلام) وهو منهم بريء، علماً أن بعض النساء تسافر إلى الزيارة رغم منع ولي أمرها كالزوج والأب فعليها لعنة الله[1].

---

(١) إشارة إلى خبر المرأة التي سألت رسول الله عن حق الزوج على المرأة فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (.. وَلا تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا إِلا بِإِذْنِهِ فَإِن خَرَجَتْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ لَعَنَتْهَا مَلائِكَةُ السَّمَاءِ وَمَلائِكَةُ الأَرْضِ وَمَلائِكَةُ الْغَضَبِ وَمَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ حَتَّى تَرْجِعَ إِلى بَيْتِهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَقّاً عَلَى الرَّجُلِ؟ قَالَ: وَالِدَاهُ، قَالَتْ: فَمَنْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَقّاً عَلَى الْمَرْأَةِ؟ قَالَ: زَوْجُهَا، قَالَتْ: فَمَا لِي مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا لَهُ عَلَيَّ؟ قَالَ: لا وَلا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ وَاحِدَةٌ..) من لا يحضره الفقيه: ٤٣٨/٣ باب حق الزوج على المرأة.

٦- بعض النساء تجلس في اتجاه القبلة لصلاة الرجال وهن مقبلات الوجوه عليه للتفرج مما يشغلهم عن الصلاة، وبعضهن تجلس في طريق الرجال مما يعرضها لنظر الرائح والآتي[٢]، فالمفروض بالنساء كالرجال الاشتغال بالعبادة والذكر واتخاذ الأماكن البعيدة عن أعين الرجال وتقبل بوجهها على الجدار ونحوه فإن ذلك أطهر لقلوبهم وقلوبهن.

٧- إن الكثير لا يفرق بين السفر لزيارة الأئمة (عليهم السلام) والسفرات السياحية الأخرى، فتراه يقضي الطريق باللهو واللعب والأحاديث الفارغة بل المحرمة كالغيبة ونحوها، ومثله يكون البقاء له في الدار أفضل. فإنه يعود إلى الدار بعد مثل هذه الزيارة وظهره مثقل بالذنوب بدل الحسنات والعياذ بالله.

٨- وقد اقترحنا فيما سبق قضاء الطريق بالاستماع إلى مرشد يوجههم أو إلى محاضرة نافعة أو تبادل أحاديث مفيدة وهكذا.

١٠- يضاف إلى ما ذكرنا أمور أخرى تحصل لما يسمى بالحملات وهم قوافل الزائرين من مدن بعيدة يأتون بقوافل مرتبة، فإن التعامل مع السائق ومساعده يكون بحرية تامة وكأنه أحد المحارم ويؤجر المشرف على الحملة أماكن ضيقة للمبيت يضطرون فيها إلى الاختلاط.

١١ - إن بعض النساء لا تتورع عن الوضوء في الأماكن العامة وأمام أنظار الرجال وهي تكشف عن ذراعيها وبعض شعرها.

---

(٢) كما في الممر المؤدي إلى قبر السيد إبراهيم المجاب رضوان الله تعالى عليه في ضريح الإمام الحسين (عليه السلام) حيث تجد النساء تصلي في هذا الممر والذي يكون عادة ضيقاً فتتعرض إلى الاحتكاك مع الرجال وبذلك تفقد الزيارة جانبها الروحي لذا ندعوا أخواتنا المؤمنات أن يكنّ أكثر دقة وحذراً في تصرفاتهن.

١٢- وقد ذكر صاحب مفاتيح الجنان (قدس سره) جملة من آداب الزيارة إلى أن قال نقلا عن الشهيد (إن من جملة الآداب تعجيل الخروج عند قضاء الوقت من الزيارة لتعظم الحرمة وليشتد الشوق) وقال أيضاً: (والنساء إذا زرن فليكن منفردات عن الرجال والأولى أن يزرن ليلاً وليكنّ متنكرات أي يبدلن الثياب النفيسة بالدانية الرخيصة لكي لا يعرفن وليبرزن متخفيات متسترات).

ثم علق صاحب المفاتيح (قدس سره): (من هذه الكلمة يعرف مبلغ القبح والشناعة في ما دأبت عليه النسوة في زماننا من أن يتبرجن للزيارة فيبرزن بنفائس الثياب فيزاحمن الأجانب من الرجال في الحرم الطاهر ويضاغطنهم بأبدانهن مقتربات من الضرائح الطاهرة أو يجلسن في قبلة المصلين من الرجال ليقرأن الزيارة فيلفتن الخواطر ويصدن القائمين بالعبادة في تلك البقعة الشريفة من المصلين والمتضرعين والباكين عن عبادتهم فيكن بذلك من الصادات عن سبيل الله تعالى إلى غير ذلك من التبعات وأمثال هذه الزيارات ينبغي حقا أن تعد من منكرات الشرع لا من العبادات وتحصى من الموبقات لا القربات).

وأمام هذه السلبيات يجب أن تتوحد الجهود وتتظافر للتخلص منها تطبيقاً للفريضة العظيمة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولقوله تعالى: ﴿وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وأول خطوة في هذا الطريق توعية الناس وإلفات نظرهم إلى مخالفات الشريعة.

أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا نحو الصلاح ويعيننا على أنفسنا ويوقظنا من نوم الجهل والغفلة إنه أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

حصيلتنا في شهر رمضان المبارك والعيد[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

افتتح سماحة الشيخ (دام ظله) الخطبتين بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى والصلاة على نبيه وآله الطاهرين كما يجب لخطبتي صلاة العيد والجمعة أن تفتتح، وهو من الأيام الشريفة التي تكرس للطاعة، لا كما يفعله الغافلون من اللهو واللعب وهو لا يعلم أفي سجل الفائزين كتب اسمه أم المبعدين المحرومين، واختار لذلك نصّاً من الصحيفة السجادية المباركة[٢]:

(اللَّهُمَّ هَذَا يَوْمٌ مُبَارَكٌ مَيْمُونٌ، وَالْمُسْلِمُونَ فِيهِ مُجْتَمِعُونَ فِي أَقْطَارِ أَرْضِكَ، يَشْهَدُ السَّائِلُ مِنْهُمْ وَالطَّالِبُ وَالرَّاغِبُ وَالرَّاهِبُ وَأَنْتَ النَّاظِرُ فِي حَوَائِجِهِمْ، فَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ وَهَوَانِ مَا سَأَلْتُكَ عَلَيْكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه. وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا بِأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَلَكَ الْحَمْدَ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ ذُو الْجَلالِ وَالاكْرَامِ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ، مَهْمَا قَسَمْتَ بَيْنَ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ عَافِيَةٍ أَوْ بَرَكَةٍ أَوْ هُدًى أَوْ عَمَلٍ

---

(١) محاضرتان ألقاهما سماحة الشيخ (دام ظله الشريف) على طلبته في درس الأصول بمناسبة افتتاح الموسم الدراسي بعد تعطيل شهر رمضان وعيد الفطر المبارك سنة ١٤٢٢هـ، وأصلها خطبتا صلاة عيد الفطر المبارك التي أمّها سماحته في جامع حي الكرامة في النجف الأشرف حيث كان يقيم صلاة الجماعة يومياً، وقد صادف العيد يوم الاثنين ٢٠٠١/١٢/١٧.

(٢) كان سماحة الشيخ يعلّق على بعض فقرات الدعاء بما يناسبها من الموعظة، وسنشير في الهامش إلى بعضها.

بِطَاعَتِكَ، أَوْ خَيْرٍ تَمُنُّ بِهِ عَلَيْهِمْ تَهْدِيهِمْ بِهِ إِلَيْكَ، أَوْ تَرْفَعُ لَهُمْ عِنْدَكَ دَرَجَةً، أَوْ تُعْطِيهِمْ بِهِ خَيْراً مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تُوَفِّرَ حَظِّي وَنَصِيبِي مِنْهُ. وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ وَالْحَمْدَ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَحَبِيبِكَ وَصِفْوَتِكَ وَخِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ الابْرَارِ الطَّاهِرِينَ الاخْيَارِ صَلاةً لا يَقْوَى عَلَى إِحْصَائِهَا إِلا أَنْتَ، وَأَنْ تُشْرِكَنَا فِي صَالِحِ مَنْ دَعَاكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَ لَهُمْ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ إِلَيْكَ تَعَمَّدْتُ بِحَاجَتِي، وَبِكَ أَنْزَلْتُ الْيَوْمَ فَقْرِي وَفَاقَتِي وَمَسْكَنَتِي، وَإِنِّي بِمَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ أَوْثَقُ مِنِّي بِعَمَلِي، وَلَمَغْفِرَتُكَ وَرَحْمَتُكَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِي، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَتَوَلَّ قَضَاءَ كُلِّ حَاجَةٍ هِيَ لِي بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهَا، وَتَيْسِيرِ ذَلِكَ عَلَيْكَ، وَبِفَقْرِي[1] إِلَيْكَ، وَغِنَاكَ عَنِّي، فَإِنِّي لَمْ أُصِبْ خَيْراً قَطُّ إِلا مِنْكَ، وَلَمْ يَصْرِفْ عَنِّي سُوءاً قَطُّ أَحَدٌ غَيْرُكَ، وَلا أَرْجُو لأَمْرِ آخِرَتِي وَدُنْيَايَ سِوَاكَ. اللَّهُمَّ مَنْ تَهَيَّأَ وَتَعَبَّأَ وَأَعَدَّ وَاسْتَعَدَّ لِوِفَادَةٍ إِلَى مَخْلُوقٍ رَجَاءَ رِفْدِهِ وَنَوَافِلِهِ وَطَلَبَ نَيْلِهِ وَجَائِزَتِهِ، فَإِلَيْكَ يَا مَوْلايَ كَانَتِ الْيَوْمَ تَهْيِئَتِي وَتَعْبِئَتِي وَإِعْدَادِي وَاسْتِعْدَادِي رَجَاءَ عَفْوِكَ وَرِفْدِكَ وَطَلَبَ نَيْلِكَ وَجَائِزَتِكَ. اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ، وَلا تُخَيِّبِ الْيَوْمَ ذَلِكَ مِنْ رَجَائِي، يَا مَنْ لا يُحْفِيهِ سَائِلٌ وَلا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، فَإِنِّي لَمْ آتِكَ ثِقَةً مِنِّي بِعَمَلٍ صَالِحٍ قَدَّمْتُهُ[1] وَلاَ شَفَاعَةَ مَخْلُوقٍ رَجَوْتُهُ إِلاَّ شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ سَلامُكَ) يا أرحم الراحمين صلّ على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) عندما تريد أن تطلب حاجة بين يدي احد فتقدم هدية لقضاء حاجتك فماذا تقدم بين يدي الله تعالى وكل ما عندك هو من عطائه ؟ تقدم فقرك وحاجتك لله تبارك وتعالى.

(١) قيل إن أحد التجار كان يصنع القماش ويبيعه فيعاد عليه لعيب يوجد فيه ففرغ نفسه مدة وأتقن صنع القماش لكيلا يرد عليه وباع بعد أن ظن سلامته من العيوب وما لبث أن رجع إليه المشتري وأخبره بعيوب قماشه فجلس التاجر يبكي والمشتري==

لماذا لا تستمر عندنا حالة التجرد عن المادة:

عندما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعظ أصحابه يتأثرون به غاية التأثر، يعيشون عالماً ملكوتياً، يتجردون خلاله عن عالم الماديات الذي يعيشونه في الدنيا، وفي أحد الأيام قال رجل منهم: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، نخاف على أنفسنا النفاق، قال (صلى الله عليه وآله وسلم): لماذا ؟ قال: عند استماعنا إلى موعظتك ننسى الدنيا والأولاد والأزواج والأموال وكل شي، وبمجرد الخروج منك والخوض في أمور الدنيا وندخل البيوت بين أزواجنا وأولادنا ننسى كل ذلك ولا يبقى لتلك الموعظة أثر، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): فو الله، لو دمتم على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة ولمشيتم على سطح الماء، وطبعاً يتكلم هذا الرجل عن حاله الخاص به، وإلاّ فإن مجموعة أخرى من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كأبي ذر وسلمان والمقداد وعمار (رضوان الله تعالى عليهم) تستمر عندهم هذه الحالة بدرجات متفاوتة، أما أمير المؤمنين (عليه السلام) فإن هذه الحالة دائمة عنده، لذلك كانت من آياته ما ذكره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحديث من العطايا وأزيد.

أسباب السمو والتقرب إلى الله تعالى:

وتوجد أسباب عديدة للسموّ والتقرب إلى الله تعالى، منها وجودكم في المسجد، ومنها ما عشناه في شهر رمضان، فإن كل واحد منّا يدرك بوضوح أن

==يطيب خاطره ويقول له سأتقبل القماش ولا أرجعه فلا تتأثر لكن التاجر (الواعي) قال ما لإرجاع القماش أبكي ولكن أبكي لأعمالي إذا عرضت على الناقد البصير كم سيجد فيها من العيوب وكيف سيردها علي وما موقفي غداً إذا كان المخلوق القاصر يجد كل هذه العيوب في قماش أتقنت صنعه.

حالته المعنوية وسموه الروحي في تلك الأيام المباركة تتألق بما لا يشبهه في غيره من الشهور، حتى الفسقة يشعرون بذلك، فهذا أحدهم- هداه الله تعالى- يقول:

رمضان ولّى، هاتها يا ساقي مشتاقةً تسعى إلى مشتاقِ

فهو يعترف أن رمضان أعانه على الانتصار على نفسه الأمارة بالسوء وأكسبه مناعة ضد هذه الفاحشة المنكرة، لكنه لم يحتفظ بها، بل فقدها بمجرد انتهاء المؤثر والسبب، وهو هذا الشهر الشريف.

ويروي أحد الأخلاقيين أنه كان لأستاذه في الأخلاق درس أسبوعي يأخذون منه زاداً يكفي أثره وتبقى فاعليته إلى الأسبوع المقبل، وهذا سر نجاح مثل هؤلاء الأساتذة، إذ أنهم يعرفون الجرعة المناسبة لمعالجة الأمراض الروحية والرذائل الخلقية[1].

مستويات استجابة القلوب للفيوضات الإلهية:

مما تقدم نستطيع أن نحدد مدى استجابة القلوب لهذه المؤثرات وتفاعلها معها على ثلاثة مستويات بعد أن نخرج من لا يستجيب لنداء الحق ولا يلبي

---

(١) قال أحد المؤمنين: زارني يوما جمع من العلماء والصلحاء فالتمست منهم أن يفيدوني بنصيحة تقربني إلى الله تعالى قالوا نوصيك بست:

١- اعلم أن الذي ينام كثيراً تقل رقة قلبه.

٢- والذي يأكل كثيراً يصعب عليه قيام الليل لمناجاة ربه.

٣- والذي يجالس الظالمين سوف لا يستقيم في دينه.

٤- والذي يتعود الغيبة والكذب لا يخرج من دنياه مؤمناً بالله ربه.

٥- والذي يقضي جميع وقته مع الناس سوف تقل عبادته لله والخلوة للتفكير في أمره.

٦- والذي يسعى لرضا الناس يبتعد عن رضا الله تعالى وحكمه.

فإن عملت بهذه النصائح اكتسبت نعيم الآخرة.

داعي الكمال والعياذ بالله، وقد ذمهم القرآن الكريم ووصفهم بما يستحقون في مواضع عديدة ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف:١٧٩).

أما مستويات الاستجابة الثلاثة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٨)، فمنهم من يفقد ما حصل عليه من مقام بمجرد زوال المؤثر كالشاعر المتقدم أو المتوكل العباسي عندما وعظه الإمام الهادي (عليه السلام) بالأبيات المعروفة:

باتوا على قُلَلِ الأجبال تحرسهم غُلْبُ الرجال فلم تنفعهم القللُ

..إلخ، فبكى حتى ابتلت لحيته.

ومنهم من تستمر عنده الحالة لكنها قابلة للزوال في ساعة الغفلة وعند طرو سبب يغلبها، كالمؤمن عنده ملكة على اجتناب المعاصي لكنه قد يغفل أو يضعف فيقع فيها، ثم لا يلبث أن تعود إليه ملكته العاصمة من جديد ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(الأعراف:٢٠١).

والقسم الثالث من بلغت فيه هذه الحالة درجة الرسوخ غير القابل للزوال، وهو ما يسمى بالعصمة الذي ليس فقط لا يأتي بما ينافيها وإنما لا يخطر على باله أن يفعل ذلك، والعصمة ليست حالة غريبة وغير معقولة، بل هي حالة موجودة بشكل من الأشكال عندنا، فمثلاً أي واحد منا ليس فقط لا يقتل ولده ولا يحرق ماله بل لا يفكر في القيام بذلك أبداً، فالمعصوم هو من يستطيع أن يعمم هذه الحالة إلى كل ما يبعده عن الله تعالى ويكرس همه وعمله فيما يقربه إلى الله تعالى.

القريب من الله تعالى من اتصف بصفاته تعالى:

وقد ذكر لمعنى القرب إلى الله تبارك وتعالى عدة معانٍ إذ لا يمكن حملها على ظاهرها، فالله ليس بعيداً عن شي من مخلوقاته وهو أقرب إلينا من حبل الوريد وأكثر من ذلك ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾(الأنفال:٢٤)، وفي الدعاء (يا من قَرُبَ من خطرات الظنون) وفي آخر (وقرب فشهد النجوى).

إن القرب من الله تعالى يعني فيما يعني مقدار الاتصاف بالصفات الإلهية المعبر عنها بالأسماء الحسنى، فقربه إلى الله تعالى يكون بمقدار تجرده عن الخصائص المادية وحمله للصفات الإلهية بحيث تكون هذه الصفات ذاتية له.

والإنسان يحمل كلا الخصائص، وبلحاظ الأولى وهي المادية ذمّه القرآن ووصفه بأوصاف قبيحة: (عجول، كفار، كنود، ظلوم، جهول) وهي التي طبيعتها وسجيتها أن تقعده عن فعل الخير وتشده إلى الأرض، أرض النفس الأمارة بالسوء، أرض الشهوات والغرائز ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾(التوبة:٣٨) ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾(الأعراف:١٧٦)، وبلحاظ الثانية وهي الإلهية مدحه القرآن وكرّمه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، وإنسانية الإنسان إنما تتحقق بالثانية لا بالأولى التي يشاركه فيه الحيوان.

وقد خطر على ذهني ذات مرة وأنا في الحضرة العلوية الشريفة هذا المعنى للحديث الشريف: (قيمة كل امرئ ما يحسنه)، أي أن درجته عند الله تبارك وتعالى تكون بمقدار ما يحمل من الصفات الحسنى لله تبارك وتعالى، فكلما ازدادت رحمته كان أقرب إلى الله، لأن الرحيم من الأسماء الحسنى، وكلما ازداد عفوه كان أقرب، لأن العفو من الأسماء الحسنى، وهكذا كلما ازداد كرمه وحلمه وعلمه وحكمته وصبره على أن تكون هذه الصفات ذاتية له وراسخة فيه وليست طارئة عليه ولا تصدر منه بتكلف.

الفرق بين الصالحين والذين عملوا الصالحات:

لذلك يفرق القرآن بين مرتبتين: أولهما: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وثانيهما: الصالحين، تلك الفئة التي يدعو مثل ابراهيم (عليه السلام) أن يجعله منهم في قوله تعالى ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(يوسف:١٠١)، فالأولى أدنى مرتبة من الثانية؛ لأنه وإن عمل صالحاً إلا أنه لا تعلم حقيقته ما هي، فقد يصدر منه غير الصالح، لذلك فقد ورد في آية أخرى ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾(التوبة:١٠٢)، فإذن يمكن أن يصدر منهم كلا العملين، أما الثاني فذاته صالحة فهو الصلاح بنفسه، فلا يصدر منه إلا صالح.

وقد ذكر العلماء لذلك مثالاً: قطعة الفحم إذا وضعتها قريبة من النار فإن لها حالات ثلاث: الأولى تصبح الفحمة حارة، والثانية تصبح حمراء لكن باطنها يبقى فحماً فلم تتبدل حقيقتها، والثالثة أنها تتأجج النار في باطنها حتى تصبح جمرة متقدة بذاتها ومصدراً لإعطاء الحرارة والنور، فقد تبدلت حقيقتها، فالحالة الأولى تزول بسرعة بمجرد زوال مصدر الحرارة وتعود فحمة سوداء، أما الثانية فتزول لكن ببطء، أما الثالثة فغير قابلة للزوال ولا تعود فحماً بعد أن تبدلت حقيقتها.

فالإنسان قد تصدر منه الأعمال الصالحة من دون أن تتحول ذاته من مادية أرضية إلى إلهية، فهذه وإن كانت على خير إلا أنها عرضة للانحراف في أية لحظة، وهي أدنى مرتبة من تلك التي تبدلت حقيقتها وتحولت فأصبحت مصدراً للخير فقط ولا تصدر منها المعصية بل لا يخطر على ذهنها شي من ذلك، وقد سمّى الله تبارك وتعالى الفئة الأولى أصحاب اليمين، والثانية السابقون، وقال عنهم: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(الواقعة:١١) رغم أن كليهما على خير، وبهذا نكون قد أيدنا المعنى الذي ذكرناه للقرب أي أن القرب إلى الله تعالى يكون بمقدار ما تتغير ذات الإنسان بالصفات الإلهية حتى تصبح حقائق راسخة فيها.

فالغاية الأسمى من هذه الطاعات والقربات أن تتغير بها الذات وتُهَذّب وتسمو وتقترب شيئاً فشيئاً من الصفات الإلهية، ولا يكفي أن تصدر هذه الأفعال من الشخص مع بقاء ذاته ونفسه على ما هي عليه من المادية والإخلاد إلى الأرض واتباع الشهوات، أي إن ظاهره صالح لكن باطنه ما زال غير ذلك.

قيمة العمل هو ما يغير الذات:

وتوجد شواهد عديدة على ذلك، أي على أن قيمة العمل إنما تكون بما يؤثر في تغيير الذات، فمثلاً: شخص يسأل الإمام (عليه السلام): يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف أعرف أن صلاتي مقبولة؟ قال الإمام (عليه السلام): انظر إلى حالك، فإن نهتك عن الفحشاء والمنكر فهي مقبولة بمقدار نهيها عن ذلك[1]، وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٧).

وفي رواية أن امرأة كانت على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تغتاب غيرها وتتكلم بكلام بذيء وهي صائمة، فأرسل (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها من يأمرها بالإفطار.

---

(١) يروى أن طالباً جاء إلى العلامة الطباطبائي (قدس سره) يشكو له عدم خشوعه في صلاته وانشغاله بالدنيا في الصلاة فقال له العلامة: (أفرغ قلبك مما سوى الله تعالى خارج وقت الصلاة ثم انظر النتيجة في الصلاة).

حقاً إنها وصفة دقيقة وهذا هو حال أكثرنا فنحن على مدار الـ(٢٤ ساعة) مشغولون بالدنيا ونريد في هذه الخمسة دقائق أن نخشع وهذا غير ممكن طبعاً لذا يقول متى ما وصل الإنسان إلى أن يكون مع الله تعالى مدار اليوم فإن النتيجة ستكون متحققة ويحصل على ملكة الخشوع.

وفي حديث: (كم من صائمٍ ليس له من صومه إلا الجوع والعطش، وكم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه)، والشواهد كثيرة على أن العمل الصالح إنما يكتسب قيمته بمقدار ما تتغير ذات الإنسان به ويقربه من الأخلاق الإلهية.

كيف نجعل الصلاح ملكة؟

إن الإنسان يستطيع بتركيز الأعمال الصالحة والمواظبة عليها وترسيخ آثارها أن يجعل الصلاح ملكة راسخة عنده، فيواظب على الكرم حتى يصبح كريماً[1]، وعلى الرحمة حتى يصبح رحيماً، وعلى الجود حتى يصبح جواداً، وعلى العفو حتى يصبح عفواً، وعلى الحكمة حتى يصبح حكيماً، بمعنى أن هذه الصفات تصبح ملكات راسخة فيه وليس حالات طارئة أو تصدر عنه تكلفاً، فأمير المؤمنين والزهراء والحسنان (عليهم السلام) حينما جاءهم المسكين واليتيم والأسير وتصدقوا بكل أرغفتهم كان يمكنهم إعطاء حصة فرد منهم لقضاء حاجته، لكنهم ولكون الكرم بل الإيثار صفة ذاتية لهم لم يكونوا يرون قضاء حاجة هذا السائل واجباً كفائياً بل هو عيني على كل واحد منهم.

وقد وصف الفرزدقُ الشاعرُ الإمام السجّادَ (عليه السلام):

ما قال لا قطّ إلاّ في تشهّدِهِ لولا التشهّدُ كانت لاؤه نعمُ

فكان الخير ينبع من ذاته ولا يعرف غير الخير، وبذلك يستطيع أن يقترب من الله تبارك وتعالى ويتحلى بصفاته وينال الدرجات القريبة منه تبارك وتعالى ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة:١١).

---

(١) وقد يقتضي الأمر إلى الإفراط بالكرم خصوصاً إذا كانت عنده حالة البخل كبيرة أو التصنع بالكرم في البداية لكسر مرض البخل إلى أن يعتاد على الكرم ويصبح عنده ملكة ثم يعود إلى حالة الوسطية.

حديثا قرب النوافل وقرب الفرائض[1]:

ففي الحديث القدسي: (ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...إلخ)، بل الأمر أكثر من ذلك، ففي حديث آخر: (ما زال عبدي يتقرب إلي بالفرائض حتى أحبه فإذا أحببته صار سمعي الذي أسمع به...الخ)، هذا الإنسان الضعيف العاجز القاصر يصبح سمع الله تبارك وتعالى وعين الله ووجه الله، وقد وصل مثل أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى هذا المقام، فيقول (عليه السلام): (أنا وجه الله)، ويقول عليه السلام: (أنا عين الله)، وورد في زيارة الإمام المنتظر (عليه السلام): (السلام عليك يا عين الله)، وعندما يقول الإمام (عليه السلام): اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، عندنا منها اثنان وسبعون حرفاً، أي إن لله تبارك وتعالى ثلاثاً وسبعين صفة وخلق، تحلّى المعصومون (عليهم السلام) باثنتين وسبعين منها، كالعلم والقدرة، ولكن الفرق أنها ليست مستقلة عندهم، وإنما فاعليتها بإذن الله تبارك وتعالى.

---

(١) من المؤسف حقاً أن لا تؤلف الكتب على مثل هذه الأحاديث التي تكاد تكون متواترة لما لها من الأهمية البالغة في مسيرة الإنسان التكاملية تجاه الله تعالى فنحن بحاجة كبيرة لبناء روحي وفكري وعقيدي فما الفائدة من التركيز على الفروع فقط وترك الأصول والمسائل الأساسية التي خلقنا لأجلها لذا ينبغي الجمع بينهما للوصول إلى النتيجة المطلوبة. وحديثا قرب النوافل وقرب الفرائض يشيران إلى آخر مقامين من مقامات سير الإنسان إلى الله تعالى حيث يصل الإنسان إلى نزع الأنا مطلقاً فيكون مظهراً لصفات الله تعالى كما في دعاء الإمام الحجة(عجل الله فرجه الشريف) (لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك).

مقارنة بين قوة أهل الله والغرب:

وهنا أريد أن ألفت نظركم إلى مقارنة بسيطة بين القوة الموجودة عند أهل الله تعالى وتلك التي يتسلط بها المستكبرون، فهذا الغرب الكافر المتغطرس الذي يريد إركاع الشعوب وإخضاعها بكل جبروته وطغيانه إنما هو جزء يسير من حرف واحد هو العلم، والإمام المهدي (عليه السلام) عندما يأذن الله تبارك وتعالى له بالظهور يكون له من العلم خمسة وعشرين مرة بقدر ما عند البشرية من علوم حسبما نطقت به الروايات، وهذا التفوق له (عليه السلام) في حرف واحد، فكيف وهو له اثنان وسبعون حرفاً؟ فتتضاءل كل وسائل طغيانهم وفرعنتهم أمامه (عليه السلام). عندنا رواية عن الإمام الرضا (عليه السلام) تقول: إن الله تعالى إذا بعث نبياً وأراد أن يدعم دعوته بمعجزة فإنه يجعلها مشابهة لأرقى فنون العصر، لذا أعطى موسى (عليه السلام) العصا التي تلقف ما يأفكون من السحر، وكان عيسى (عليه السلام) يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص لتقدمهم في علم الطب.

لا حاجة للمعجزة عند الإمام المهدي (عليه السلام):

وسيأتي الإمام المهدي (عليه السلام) بما يذهلهم من العلوم التي تسحق تكنولوجيتهم وتتركها عاجزة عن مواجهته (عليه السلام)، ولا أعني بذلك أن الإمام (عليه السلام) بحاجة إلى معجزة أو إنه يظهر كلمته بطريق إعجازي، وإنما أريد أن أقول إنه سيواجه تحديات العصر بأرقى فنونها كما واجه الأنبياء (عليهم السلام) أممهم.

وقد كان لآصف وصي سليمان (عليه السلام) حرف واحد استطاع به بإذن الله أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن قبل أن يرتد الطرف، وليس هذا الحرف طبعاً من سنخ الحروف اللفظية الهجائية، وإنما يعني صفة كالعلم أو القدرة بإذن الله تبارك وتعالى، وقد استأثر تبارك وتعالى بحرف أي بصفة لا بخلاً

حاشاه، وإنما لعدم قابلية المحل[1]، ذلك الحرف هو (الغنيّ)، فإن مخلوقاته مهما اتصفت بصفاته تبقى محتاجة إليه، فالغنى عين ذاته كما إن الفقر والحاجة عين ذات مخلوقاته لا تستطيع أن تنفك عنها.

وهذه المعاني كلها يتضمنها الدعاء المروي عن صاحب العصر أرواحنا له الفداء بواسطة سفيره الأمين أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد الوارد في أعمال شهر رجب، فيصفهم (عليه السلام) بأنهم (الواصِفُونَ لِقُدْرَتِكَ المُعْلِنُونَ لِعَظَمَتِكَ) أي إنهم مظاهر صفاتك الحسنى إلى أن يقول: (لا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَها إِلاّ أَنَّهُمْ عِبادُكَ وَخَلْقُكَ فَتْقُها وَرَتْقُها بِيَدِكَ بَدْؤُها مِنْكَ وَعَوْدُها إِلَيْكَ)[2]، فهم إذن عباد محتاجون، لا يستغنون عنك، وهذا ما عنيناه بعدم قابلية المحل.

وبهذه القدرة على التكامل والاتصاف بالصفات الإلهية استحق الإنسان أن يكون خليفة الله تبارك وتعالى في أرضه، لأنه يستطيع أن يمثل ويظهر الصفات الإلهية، بينما الملائكة تستطيع إظهار بعض هذه الصفات، فقدرتها على التمثيل والخلافة محدودة.

لا بد من التخلق بأخلاق الله تعالى:

وقد ورد في الحديث: (تخلّقوا بأخلاق الله)، فمثلا أنت رب عائلة، فينبغي أن تتصرف معهم كما يتصرف الرب الخالق مع المربوبين، يغدق عليهم

---

(١) كما يعبرون عنه بإناء القلب فكلما كان إناء القلب كبيرا كان استعداده لاستيعاب الفيوضات الإلهية اكبر وكلما كان صغيرا كان الاستعداد اقل إلى أن يصل إلى درجة بحيث لا استعداد له مطلقاً وتجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ (الرعد:١٧).

(٢) وجاء في الاحتجاج ج٢/ص٤٣٨ (قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لا تتجاوزوا بنا العبودية ثم قولوا فينا ما شئتم و لن تبلغوا و إياكم والغلو كغلو النصارى فإني بريء من الغالين).

بالنعم وإن كانوا يعصونه ويستكبرون عن طاعته وتنفيذ أوامره، ويحلم عنهم ويرعاهم ويرحمهم، فالمتخلقون بأخلاق الله عاكسون للصفات الإلهية ومظهرون لها كما تعكس المرآة الصور، فمثلاً: العالم يستطيع أن يظهر علمه مباشرة بالتدريس أو التآليف، ولكنه يمكن أن يظهره من خلال تربية طلابه وإعدادهم فيكونون مظهرين لعلمه، والله تبارك وتعالى قد أظهر علمه مباشرة بهذ القرآن، ولذا قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لقد تجلّى الله لعباده في كتابه، ولكن لا تبصرون)، والتجلي الثاني لعلمه تبارك وتعالى هم محمد وآل محمد (صلى الله عليهم أجمعين) المظهرون لعلمه.

النفس مظهر الصفات الإلهية:

والنفس الإنسانية مظهر للصفات الإلهية تتجلى فيها، لذا جاء الحديث الشريف: (من عرف نفسه فقد عرف ربّه)، وأحد هذه التجليات للنفس كان حين عرض الخالق على المخلوقين الأمانة في عالم الذر، وقد بينته الآية الشريفة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢).

ففي كل شهادة توجد مرحلتان: مرحلة تحمل الشهادة بمعنى الاطلاع على المشهود عليه والتيقن به، والمرحلة الثانية أداء الشهادة بعد تحملها، وهذا مذكور في كتب الفقه، فمثلاً حينما يرى الشخص إجراء الطلاق من قبل الزوج فهذا تحمّل للشهادة، وعندما يدعى إلى الشهادة عند القاضي ويدلي بشهادته فهذا أداء للشهادة.

فالله تبارك وتعالى حمّل بني آدم الشهادة أولا بأن أطلعهم على أنفسهم وكانت صافية كالمرآة تعكس حقيقة ربوبية رب العالمين، فوجدوا فيها حقيقة الربوبية لله تبارك وتعالى والفقر التام إلى لطفه ورعايته، لذلك حينما سئلوا:

ألست بربكم؟ أدّوا الشهادة التي تحمّلوها بلا تردد لوضوح الصورة أمامهم: بلى.

وهذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي موجودة عند كل أحد، ولكن الإنسان الذي يلوثها ويعكر صفوها بالذنوب ﴿بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾(المطففين: ١٤) ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(الحج:٤٦)، فعندما كانت قلوبهم صافية لم تلوثها الذنوب ولم تكدرها المؤثرات الخارجية كان اعترافه بالربوبية بلا تردد، وفي الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه)[1]، وفي الدعاء: (وَأنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ المَسافَةِ، وأَنَّكَ لا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إِلاّ أَنْ تَحْجُبَهُمُ الأعمال دُونَكَ).

مفتاح الذنوب الغفلة:

ومفتاح هذه الذنوب الغفلة عن الله تبارك وتعالى والالتفات إلى النفس والأنا، فيكون علاجها بالذكر الدائم، ولا نعني به - كما ورد عنهم (عليهم السلام): أن تلزق لسانك بحنكك تقول: سبحان الله والحمد لله؛ وإنما أن ترى الله حاضراً عندك ومعك ويحول بينك وبين قلبك، فحينما تحدث نفسك فالله مطلع على هذا الحديث، فإذا غفل عن الله هوى وتردى وأضاع نفسه ونساها ﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ (الحشر:١٩).

أقول كل هذا الكلام لأمرين:

---

(١) بحار الأنوار: ١٨٧/٥٨.

الأول: فتح أذهانكم على هذه المعارف الإلهية والحقائق العالية لتكون خير محفز لكم نحو التكامل، فإن أول خطوة في طريق العمل هو العلم[1]، فمن دون العلم بالشيء لا يتسنى العمل به، وقد تضمن هذا الكلام بيان مقامات رفيعة يمكن للإنسان أن يصلها بالإخلاص والهمة ونكران الذات والاتكال على الله تبارك وتعالى.

الثاني: إننا ونحن نفارق شهر رمضان بكل ما حمل إلينا هذا الشهر من عطايا ومنح (أنفاسكم فيهِ تسبيح ونومكم فيهِ عبادة وعمَلكم فيهِ مقبُول ودعاؤكُم فيه مستجاب) فكان خير ناصر أعان على الشيطان، وصاحب سهّل سبل الإحسان، فكم سوء صرف به عنا، وكم من خير أفيض به علينا، وفد علينا بالبركات وغسل عنا دنس الخطيئات، وقد عشنا فيه سموّاً روحياً بإذن الله تبارك وتعالى لا نجد مثله في غيره من الشهور، كالحالة الروحية التي نعيشها بوجودنا في هذا المسجد الشريف وحضورك في هذه الشعيرة المقدسة، فإنك تحس أنك تقترب من الله تبارك وتعالى وتعيش في كنفه، فالمطلوب منا ألاّ تكون هذه الحالة طارئة وعارضة تزول بمجرد زوال سببها، يعني بمجرد انتهاء شهر رمضان أو خروجنا من المسجد، وإنما علينا أن نتغير من الداخل ونصلح باطننا حتى تكون هذه الحالة الإلهية صفة راسخة لها تحثنا على كل خير وتحصننا من كل معصية حتى نبلغ شهر رمضان المقبل فننال ألطافاً جديدة.

كيف تعرف الحوزة نجاحها في شهر رمضان:

ونحن كحوزة علمية إذا أردنا أن نعرف مدى نجاحنا في شهر رمضان فعلينا أولاً أن نلتفت إلى الامتحانات التي حملناها في هذا الشهر الكريم لنعرف

---

(١) جاء في أول خطبة في نهج البلاغة قوله (عليه السلام): (أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَ كَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ).

ماذا أنجزنا على طريق النجاح فيها، ومن ثم نكون مسؤولين عن الاستمرار بالنجاح هذا والمحافظة على الروحية العالية التي حصلت لنا بفضل الله تبارك وتعالى وببركات هذا الشهر، فقد كانت مسؤوليتنا بعدة اتجاهات:

١- مراقبة أنفسنا وتهذيبها ومنعها من الانسياق وراء الشهوات والمطامع من حب الجاه والمال وكثرة الأتباع.

٢- تحصيل الإخلاص لله تبارك وتعالى وتعميق الارتباط به والمعرفة به تبارك وتعالى من خلال القرآن الكريم والأدعية والأحاديث المأثورة[١].

٣- مضاعفة الهمة والجد والاشتغال والدرس والتحصيل لتشييد هذا الصرح العظيم الخالد، حتى تسليمه إلى راعيه الأول أرواحنا له الفداء، صرح الحوزة العلمية وفقه أهل البيت (عليهم السلام).

٤- وفي حفظ إلفتنا ومودتنا ووحدتنا واجتماع قلوبنا على توحيد الله تبارك وتعالى وولاية محمد وآل محمد (صلى الله عليهم أجمعين) وكفى بذلك جامعاً مشتركاً، وقد عشنا السمو والصفاء بلطف الله تبارك وتعالى في جميع هذه الاتجاهات وبروح عالية خصوصاً في الليالي والمناسبات الشريفة، فلا ينبغي لنا التراجع عنها وخسارتها[٢].

٥- وفي أداء مسؤولياتنا تجاه المجتمع من قضاء حوائجهم وحلّ مشاكلهم ورعايتهم وهدايتهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي هذا الاتجاه بالذات وجدت تقصيراً واضحاً لدى الحوزة الشريفة خلال شهر رمضان المبارك، حيث قعد الكثيرون عن أداء وظيفتهم منشغلين بمسؤوليات أقل أولوية، كالكتابة ومراجعة الدروس رغم أنه لا منافاة بينها أصلاً، فيستطيع القيام بها جميعاً

---

(١) راجع كتاب شكوى القرآن لسماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله).

(٢) راجع كتاب الصراع الحضاري بين الإسلام والغرب لسماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله).

بتوفيق الله تبارك وتعالى، فإذا لم نؤدّ وظيفة الوعظ والإرشاد والتوجيه في شهر رمضان، فمتى نؤديها؟ وأي فرصة أنسب منه حيث تجد القلوب عامرة بالإيمان ومتوجهة لداعي الله والمساجد مكتظة بالمؤمنين ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠-٣٢).

وفي الحقيقة فإن لطف الله تعالى بعباده ومدّ حبل الرحمة إليهم ليجذبهم إليه ليست منحصرة بشهر رمضان وإن كان هو أبرزها، بل هناك ليلة الجمعة ويومها وبعض الأزمنة الشريفة الأخرى، وهناك أمكنة كالمشاهد المعظمة للأئمة الأطهار (عليهم السلام) والمساجد عموماً ومجالس الوعظ والإرشاد وذكر أهل البيت (عليهم السلام) وصلوات الجماعة بل الصلاة عموماً، فإنها معراج كل تقي وفرصة لإعادة الصلة بالله تبارك وتعالى وتجديد الروح المعنوية، وجرعة مستمرة لردع النفس ونهيها عن الفحشاء والمنكر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه محمد وآله الطاهرين.

كيف نفهم العيد بالشكل الصحيح[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

من خطبتي صلاة عيد الفطر التي أقيمت في مسجد الكرامة في النجف الأشرف لسنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، بإمامة الشيخ محمد اليعقوبي (دامت بركاته).

بدأهما بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى بما هو أهله، والصلاة والتسليم على سيد خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين، بنصوص مقتبسة من الصحيفة السجادية، ودعاء الافتتاح، ثم قرأ آية للموعظة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر:١٨-١٩) ونبه إلى أن نسيان الله تبارك وتعالى يكون بنسيان السبل الموصلة إليه وعدم الالتزام بها، ومنها الحضور في المسجد، ليس هذا المسجد فقط بل عموم المساجد، فعدد الحاضرين لم يتجاوز ثلاثمائة مصلٍّ رغم أنه يتوسط أحياء سكنية تضم آلاف المسلمين:- ثم حرّر هذا العيب الاجتماعي في كتاب مستقل بعنوان (شكوى المسجد).

شهر رمضان سبب للخيرات والبركات:

ثم قال: بالأمس فارقنا صاحب عزيز علينا، وهو شهر رمضان، وليس من حسن الصحبة أن يفارقنا بلا وداع، فقد أقام فينا هذا الشهر مقام حمد وصحبنا صحبة مبرورة، وكان سبباً لكثير من البركات والخيرات ومنها:

---

(١) من خطبتي صلاة عيد الفطر التي أقيمت في مسجد الكرامة في النجف الأشرف لسنة ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠٠/٩/٢٨ م.

١- إنه الداعي، أي المبلغ لبطاقة الدعوة، إلى ضيافة الله سبحانه، فكنا ضيوفاً عنده تبارك وتعالى شهراً كاملاً، ولك أن تقدر وتتصور شرف وكرامة هذه الضيافة بمقارنتها بالضيافة الدنيوية فيما لو دعاك المرجع الديني مثلاً أو شخصية مرموقة في المجتمع لضيافته، وماذا كانت العطايا على مائدة الضيافة؟ (أنفاسكم فيهِ تسبيح ونومكم فيهِ عبادة وعمَلكم فيهِ مقبُول ودعاؤكُم فيه مستجاب...) إلى آخر ما ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبته.

٢- إن هذا الشهر قد أربحنا أفضل أرباح العالمين؛ فإن التجارة مع الله سبحانه أربح التجارات، فهي أولاً لا تبور بل خالدة دائمة، ويصفها تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ﴾ (البقرة:٢٦١)، فالواحد بسبعمائة ضعف، ثم يقول عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، وفي شهر رمضان تتضاعف هذه الأرباح بما لا يحصيها إلاّ الله سبحانه، فهنيئاً لمن استثمر ساعات عمره في اكتساب الحسنات وعمل الخيرات، ومن هذه الأرباح ما قاله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ومَن تطّوع فيهِ بصلاة كتبَ لَهُ براءة مِن النّار، ومَن أدّى فيهِ فرضاً كان لَهُ ثواب مَن أدى سبعينَ فريضة فيما سواه مِن الشهّور، ومَن أكثر فيهِ من الصلاة عليّ ثقل الله ميزانه يَوم تخفُّ الموازينَ، ومَن تلا فيهِ آية مِن القرآن كانَ لَهُ مثل أجر مَن ختم القُرآن في غَيرَه مِن الشهور).

٣- إن فرص الطاعة تزداد في هذا الشهر لتصاعد الهمم وزيادة الرغبة في عمل الخير، فتجد أحدنا يحب أن يصلي المستحبات أو يزور المعصومين (عليهم السلام) خصوصا الإمام الحسين (عليه السلام).

وآخر يحب الإطعام، وآخر يكثر من تلاوة القرآن أو الدعاء بشكل لا يشابهه شي في بقية الشهور ببركة هذا الشهر العظيم.

إن فرص المعصية تقلّ في هذا الشهر وسببه واضح لأن مناشئ المعصية هي الغرائز والشهوات للنفس الأمارة بالسوء، وفي هذا الشهر تخمد هذه

الشهوات وتقلل بشكل كبير، لأن الإنسان يمتلك الإرادة في هذا الشهر على ترك المحلل من الطعام والشراب والنكاح، فكيف لا يكون قادراً على اجتناب المحرمات، لذا تجد المجتمع يبتعد عن المعاصي بشكل ملحوظ، فالسافرة تتحجب وتارك الصلاة يصلي والذي يطفّف في الميزان يترك هذا الفعل الشنيع والمعتاد على الكذب أو الغيبة والنميمة والنفاق يتركهما ويقول: (إني صائم).

وإلى هاتين النقطتين أشار (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: (أيها النّاس، إنّ أبواب الجنان – وهي على بعض التفاسير نفس الطاعات والأعمال الصالحة على القول بتجسم الأعمال- في هذا الشّهر مفتحة فسلوا ربّكم أن لايغلقها عَلَيكُم، وأبواب النيران – وهي السيئات والمعاصي بنفس التفسير السابق – مغلقة فسلُوا ربّكم أن لا يفتحها عَلَيكم والشيّاطين مغلولة فسلوا ربّكم أن لا يسلّطها عَلَيكُم)، وبهذا التفسير نفهم ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان بين أصحابه يوماً فسمع هدّة عظيمة أفزعت الخليقة، فسئل عن ذلك (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: هذا رجل عمره سبعين سنة قضاها في المعاصي، فهو طول هذه المدة يهوي في جهنم بارتكابه المزيد من المعاصي حتى مات فاستقرّ في قعر جهنم التي أعدها لنفسه.

ثم نقل بعض فقرات دعاء الإمام السجّاد (عليه السلام) لنطلع على المزيد من النعم التي من الله تبارك وتعالى علينا بها في هذا الشهر الشريف: (السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مُجَاوِرٍ رَقَّتْ فِيهِ الْقُلُوبُ، وَ قَلَّتْ فِيهِ الذُّنُوبُ. السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ نَاصِرٍ أَعَانَ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَ صَاحِبٍ سَهَّلَ سُبُلَ الإِحْسَانِ السَّلامُ عَلَيْكَ مَا أَكْثَرَ عُتَقَاءَ اللَّهِ فِيكَ، وَ مَا أَسْعَدَ مَنْ رَعَى حُرْمَتَكَ بِكَ السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَمْحَاكَ لِلذُّنُوبِ، وَ أَسْتَرَكَ لأَنْوَاعِ الْعُيُوبِ السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَطْوَلَكَ عَلَى الْمُجْرِمِينَ، وَ أَهْيَبَكَ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ لا تُنَافِسُهُ الأيام.: السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ هُوَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ كَرِيهِ الْمُصَاحَبَةِ، وَ لا ذَمِيمِ الْمُلابَسَةِ السَّلامُ عَلَيْكَ كَمَا وَفَدْتَ عَلَيْنَا بِالْبَرَكَاتِ، وَ

غَسَلْتَ عَنّا دَنَسَ الْخَطِيئَاتِ السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ مُوَدَّعٍ بَرَماً وَ لا متروك صِيَامُهُ سَأَماً. السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مَطْلُوبٍ قَبْلَ وَقْتِه، وَ مَحْزُونٍ عَلَيْهِ قَبْلَ فَوْتِه. السَّلامُ عَلَيْكَ كَمْ مِنْ سُوءٍ صُرِفَ بِكَ عَنّا، وَ كَمْ مِنْ خَيْرٍ أُفِيضَ بِكَ عَلَيْنَا، السلام عليك وعلى ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، السلام عليك ما كان أحرصنا بالأمس عليك وأشد شوقنا غداً إليك، السلام عليك وعلى فضلك الذي حرمناه وعلى ماضي من بركاتك سلبناه) ثم ختم الخطبة الاولى بتلاوة سورة الكوثر.

وبعد جلسة خفيفة قام إلى الخطبة الثانية فقال:

الحمد لله كما هو أهله، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً.

كيف نفهم العيد بالشكل الصحيح:

كثيراً من الناس لا يعي ولا يفهم معنى العيد بالشكل الصحيح كما يريده الله سبحانه وتعالى، فإنه يفهمه على أنه إيذان بانتهاء الحظر والمنع الذي فرض على ممارسة مشتهيات النفس بالحلال أو حتى بالحرام والعياذ بالله، فتراهم يتسامحون في أمر الدين ويتساهلون في تعاليمه، فيحصل الاختلاط بين الجنسين أثناء زيارات الأقرباء، وتضع النساء الزينة أمام غير المحارم، وربما جرت عادة بعض الناس على مصافحة النساء والرجال، أو التساهل بأمر الحجاب باعتبار أن الأيام أيام فرح وسرور، ويقصد بعضهم أماكن اللهو واللعب وحفلات الفسق والفجور ويشاهدون البرامج الفاسدة، وكأنّ معنى العيد هو العودة إلى الحياة السابقة قبل شهر رمضان بكل ما تتضمنه من ابتعاد عن الله سبحانه، ويتخلى عن كل التقدم والتقرب إلى الله سبحانه الذي حققه في شهر رمضان، ويغفل عن الحديث النبوي الشريف: (من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان أمسه خيراً من يومه فهو ملعون)، فهل حاسبنا أنفسنا لنرى من أي هذه

الأصناف نحن، من هنا وجب علينا أن نبين بعض النقاط التي ينبغي الالتفات إليها في مثل هذه المناسبة الشريفة:

١- إن العيد يمثل الوصول إلى الهدف الحقيقي، وهو نيل رضا الله سبحانه، باعتبار أن المؤمن يمرّ بتربية ومعاناة طويلة خلال الشهر من خلال ما يؤديه من طاعات، ويزداد تركيز هذه التربية في العشر الأواخر التي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها يطوي فراشه ويشدُّ مئزره للعبادة، وتتضمن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فيأتي العيد تتويجاً لهذه المرحلة المضنية، حيث يمثل بلوغ الهدف والنهاية لهذه المرحلة من التربية والتكامل ويكون مستعداً لقبول المرحلة التالية من التكامل، باعتبار أن مراحل التكامل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى لا نهائية، قال تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٢١)، فإذا كان هذا معنى العيد، فكيف يرجع الإنسان القهقرى وينزل إلى المراحل التي تجاوزها بعد جهد وجهاد طويلين.

٢- إن من حق الناس أن يفرحوا بالعيد لكن فرحهم مع الأسف لأسباب دنيوية، فهو يفرح لإباحة الطعام والشراب والنكاح ولإزالة الموانع التي كانت مفروضة عليه في شهر رمضان، وكان المفروض عليه أن يحزن لفوات تلك البركات والنعم التي كان شهر رمضان سبباً لنزولها على العباد والتي ذكرنا بعضها في الخطبة السابقة، لذا قال الإمام السجاد (عليه السلام) في دعائه: (فنحن مودعون وداع من عز فراقه علينا وغمنا وأوحشنا انصرافه عنا)، وقال (عليه السلام): (السَّلاَمُ عَلَيْكَ مِنْ قَرِينٍ جَلَّ قَدْرُهُ مَوْجُوداً، وَأَفْجَعَ فَقْدُهُ مَفْقُوداً، وَمَرْجُوٍّ آلَمَ فِرَاقُهُ).

الصحيح أن يكون الفرح والحزن للأسباب الأخروية:

والفرح الدنيوي - أعني ما كان لأسباب دنيوية كربح تجارة أو رزق مولود أو زيادة أموال أو تحصيل جاه أو منصب اجتماعي - مذموم عند الله

تبارك وتعالى، لأنه لا يصبُّ في الهدف الحقيقي، قال تعالى في قصة قارون: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)، وكان فرحه لأن الله آتاه ثروة طائلة وصفها تبارك وتعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص:٧٦)، وقال تعالى: ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:٢٣)، وقد يؤدي هذا الفرح إلى البطر والاختيال والطغيان فيكون وبالا، كما حصل لقارون إذ كانت نتيجته ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ، وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص: ٨١-٨٢).

وكذا الحزن بفوات أمور دنيوية مذموم، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ (الحديد: ٢١-٢٢).

والصحيح أن يكون الفرح للأسباب الأخروية، فتفرح إذا وفقك الله تعالى لصلاة الليل، أو زيارة قبر الحسين (عليه السلام)، أو قضاء حاجة أخيك المؤمن، وتفرح إذا انتصرت على نفسك[1]، مثلاً حصل سوء تفاهم بينك وبين أخيك المؤمن، فإن نفسك تستكبر وتنتظر من ذلك الطرف أن يأتي ويعتذر، فتنتصر عليها وتذهب أنت إلى أخيك وتعتذر إليه، أو تمر بك امرأة جميلة قد ظهرت بعض مفاتنها فتدعوك نفسك إلى النظر إليها، فتعصيها وتنتصر عليها بترك النظر إلى تلك المرأة، عندئذ ستشعر بلذة وسعادة في قلبك تكون منشأ لفرح حقيقي ومحمود عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أشجع الناس من غلب هواه).

وأنتم بحضوركم إلى هذا المسجد المبارك وإقامتكم لهذه الشعيرة المقدسة في حين راح غيركم يمرح ويلعب ويلهو إنما تعيشون فرحاً حقيقياً، لأنكم في طاعة الله سبحانه وفي رحاب بيته.

وكذا الحزن لا بدَّ أن يكون لفوات شي كان يمكن أن يستغل لتحقيق المزيد من القرب إلى الله تعالى، كانتهاء شهر رمضان الفرصة العظيمة لنيل رضا الله سبحانه.

٣- إن يوم العيد يعتبر زمان إعلان النتائج لامتحان شهر رمضان - فإذا امتثل الإنسان لأوامر الله سبحانه وأدى التكاليف بالصورة التي ترضي الله سبحانه فهو من الناجين الفائزين، وإن لم يفعل ذلك فهو والعياذ بالله من الأشقياء الذين وصفهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبته فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم).

فمن حق الفائزين أن يفرحوا بنجاحهم في هذا الامتحان الكبير، ولكن هؤلاء الفرحين الذين يلهون ويلعبون ويضحكون في العيد هل اطلعوا على النتائج فوجدوا أنفسهم من الناجين؟ أم أخبرهم ثقة عن الله تبارك وتعالى أنهم في قائمة الفائزين؟ كل هذا لم يحصل، فكيف جاز لهم الفرح وهم لا يعلمون بالنتائج، فالإنسان الواعي يكون في حذر وتوجس عند انتهاء شهر رمضان، لأنه لا يدري هل كتب اسمه في ديوان المحسنين فيفوز أو في ديوان المسيئين والعياذ بالله فيهوي ويسقط.

٤- إن الله تعالى قد جعل أزمنة شريفة وأمكنة مباركة ليزيد في إحسان المحسنين، فمن الأزمنة ليلة الجمعة ويومها، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، والعيدين ونحوها، ومن الأمكنة المباركة المساجد عموماً، والأربعة منها خصوصاً، ومراقد المعصومين (عليهم السلام) بل سائر الأولياء والصالحين، كل ذلك لكي يضاعف لهم الحسنات أضعافاً كثيرة، فالمفروض أن يستغل الإنسان

هذه الفرصة ويزداد من الطاعات، وإذا أضاعها ولم يستغلها فضلاً عما لو شغلها باكتساب المعاصي والآثام والعياذ بالله فسيكون وبالاً عليه، لذلك تجد الأئمة (عليهم السلام) حشدوا لمثل هذه المواسم الشريفة أعمالاً ومستحبات من دعاء وزيارة وصلاة وذكر وغيرها، فلا ينبغي هدر هذه الفرصة الثمينة.

٥- إن الله سبحانه قد حدد شرط قبول الأعمال وهو التقوى، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٣٧)، فهل هذه الممارسات التي تصدر من هؤلاء الناس هي من صفات المتقين؟ كلا بالتأكيد، فهم إذن ليسوا ممن تقبل أعمالهم، وهم بحاجة إلى البكاء والندم والاستغفار بدلا من الفرح والسرور، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أعمالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٤) ويقول تعالى في جزائهم وعاقبتهم: ﴿فَحَبِطَتْ أعمالهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ (الكهف: ١٠٥) وفي دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة: (إلهي كَمْ مِنْ طاعَةٍ بَنَيْتُها وَحالَةٍ شَيَّدْتُها هَدَمَ اعْتِمادِي عَلَيْها عَدْلُكَ بَلْ أَقالَنِي مِنْها فَضْلُكَ) وهكذا نحن فإن كثيراً من الطاعات التي نتصور حسن الجزاء عليها حينما توزن بميزان العدل الإلهي تجدها بلا قيمة، بل الأمر أدهى من ذلك، فإنها تكون عبارة عن تقصير واستخفاف بمقام الربوبية، فبدلاً من الاعتماد عليها، صرنا نطلب من الله تبارك وتعالى أن يتفضل علينا بعدم المؤاخذة عليها.

ثم ختم الخطبة الثانية بتلاوة سورة النصر.

العود إلى الله في العيد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح سماحة الشيخ الخطبة بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى والصلاة على نبيه وآله الطاهرين، وابتدأ الخطبة بقراءة نص من مناجاة الشاكرين للإمام السجاد (عليه السلام)، وقال تعليقاً على ذلك: إنه لولا أن الله تعالى والمعصومين (عليهم السلام) علّمونا كيف نخاطب الله تبارك وتعالى لما أمكننا ذلك، فإنك ترى في مقاييس أهل الدنيا أن صاحب الموقع الفلاني لا يمكن مخاطبته إلا وفق السلّم الفلاني، فكيف برب العزة والجلال؟!

وقد ركّز في الدعاء على قول الإمام (عليه السلام) (فَكَيْفَ لِي بِتَحْصِيلِ الشُّكْرِ، وَشُكْرِي إِيَّاكَ يَفْتَقِرُ إِلى شُكْرٍ؟ فَكُلَّما قُلْتُ: لَكَ الحَمْدُ، وَجَبَ عَلَيَّ لِذلِكَ أَنْ أَقُولَ: لَكَ الحَمْدُ) ففي هذا تربية عظيمة وبيان لجانب من حقيقة العبودية، لكيلا يسقط الإنسان في مستنقع (الأنا)، فيعجب بنفسه وبعمله ويطغى ويستكبر، فإذا استوعب هذا الدرس علم أنه لا شيء.

وتوخياً للفائدة العامة وللتركيز على المعنى الذي أراد الشيخ اليعقوبي إيصاله إلى أذهاننا أذكر النص الكامل للمناجاة.

(إِلهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقامَةِ شُكْرِكَ تَتابُعُ طَوْلِكَ، وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصاءِ ثَنائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ، وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحامِدِكَ تَرادُفُ عَوائِدِكَ، وَأَعْيانِي عَنْ نَشْرِ عَوارِفِكَ تَوالِي أَيادِيكَ، وَهذا مَقامُ مَنْ اعْتَرَفَ بِسُبُوغِ النَّعْماءِ وَقابَلَها بِالتَّقْصِيرِ، وَشَهِدَ عَلى نَفْسِهِ بِالآمالِ وَالتَّضْيِيعِ، وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ البَرُّ

---

(١) خطبة ألقيت في صلاة الظهرين يوم عيد الأضحى المبارك ١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠٢/٢/٢٣م في جامع حي الغدير في النجف الأشرف.

الكَرِيمُ الَّذي لا يُخَيِّبُ قاصِديه وَلا يَطْرُدُ عَنْ فِنائه آمليه، بِساحَتِكَ تَحُطُّ رِحالُ الرَّاجينَ، وَبِعَرْصَتِكَ تَقِفُ آمالُ المُسْتَرْفِدينَ، فَلا تُقابِلْ آمالَنا بِالتَّخْيِيبِ وَالإياسِ، ولا تُلْبِسْنا سِرْبالَ القُنُوطِ وَالإبْلاسِ، إِلهِي تَصاغَرَ عِنْدَ تَعاظُمِ آلائِكَ شُكْرِي، وَتَضاءَلَ فِي جَنْبِ إِكْرامِكَ إِيَّايَ ثَنائِي وَنَشْرِي، جَلَّلَتْنِي نِعَمُكَ مِنْ أَنْوارِ الإيمانِ حُلَلاً، وَضَرَبَتْ عَلَيَّ لَطائِفُ بِرِّكَ مِنَ العِزِّ كِلَلاً، وَقَلَّدَتْنِي مِنَنُكَ قَلائِدَ لا تُحَلُّ، وَطَوَّقَتْنِي أَطْواقاً لا تُفَلُّ، فَآلاؤُكَ جَمَّةٌ ضَعُفَ لِسانِي عَنْ إِحْصائِها، وَنَعْماؤُكَ كَثِيرَةٌ قَصُرَ فَهْمِي عَنْ إِدْراكِها، فَضْلاً عَنْ اسْتِقْصائِها، فَكَيْفَ لِي بِتَحْصِيلِ الشُّكْرِ وَشُكْرِي إِيَّاكَ يَفْتَقِرُ إِلى شُكْرٍ؟ فَكُلَّما قُلْتُ: لَكَ الحَمْدُ، وَجَبَ عَلَيَّ لِذلِكَ أَنْ أَقُولَ: لَكَ الحَمْدُ.

إِلهِي فَكَما غَذَّيْتَنا بِلُطْفِكَ وَرَبَّيْتَنا بِصُنْعِكَ، فَتَمِّمْ عَلَيْنا سَوابِغَ النِّعَمِ، وَادْفَعْ عَنَّا مَكارِهَ النِّقَمِ، وَآتِنا مِنْ حُظُوظِ الدَّارَيْنِ أَرْفَعَها وَأَجَلَّها عاجِلاً وَآجِلاً، وَلَكَ الحَمْدُ عَلى حُسْنِ بَلائِكَ وَسُبُوغِ نَعمائِكَ، حَمْداً يُوافِقُ رِضاكَ وَيَمْتَرِي العَظِيمَ مِنْ بِرِّكَ وَنَداكَ، يا عَظِيمُ يا كَرِيمُ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.).

أصل كلمة العيد من العود، وقلبت الواو ياءً، فالعيد يحمل معنى العود والرجوع إلى الله تبارك وتعالى، فيوم العيد يكون من أيام الله تعالى التي قال فيها عزّ من قائل ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأيام اللّه﴾ (إبراهيم:٥)، لذا حشد الأئمة (عليهم السلام) لمثل هذه الأيام عدداً من الأعمال الصالحة، كالصلاة والدعاء والذكر، ليُعبّئوا الإنسان – خصوصاً في أيام الأعياد وبقية الأزمنة الشريفة – لله وحده، وأنت تقرأ في ضمن أدعية الأعياد: (اللّهُمَّ مَنْ تَعَبَّأَ وَتَهَيَّأَ وَأَعَدَّ وَاسْتَعَدَّ لِوِفَادَةٍ إلى مَخْلُوقٍ رَجَاءَ رِفْدِهِ وَطَلَبَ نائِلِه وَجائِزَتِه، فَإِلَيْكَ يارَبِّ تَعْبِيَتِي وَاسْتِعْدادِي رَجاءَ عَفْوِكَ وَطَلَبَ نائِلِكَ وَجائِزَتِكَ)، من هنا كان للعيد معنى غير ما يفهمه عامة المجتمع ويسيئون به إلى أنفسهم وإلى دينهم ويسخطون به خالقهم، فالعيد الحقيقي كما عرّفه أمير المؤمنين (عليه السلام) هو: (كل يوم لا تعصي الله فيه فهو عيد)، وعن سويد بن غفلة قال: دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام)

يوم عيد، فرأيت عنده طعاماً بسيطاً، فاستغرب سويد خصوصاً وإن اليوم عيد، فقال له الإمام (عليه السلام): (إنما هذا عيدُ مَنْ غُفِرَ لهُ)[1].

هذا هو الفهم الصحيح للعيد، لكن أولياء الشيطان وأتباع الشهوات وعبدة الهوى الذين لا يتركون فرصة إلا وسخّروها لإشباع غرائزهم النهمة أخرجوا العيد من معناه الحقيقي، فجعلوه فرصة لممارسة المعاصي وارتكاب الفواحش، ولا أريد أن أذكر أعمالهم في هذا المكان المقدس، لكن المؤسف أنه حتى الأُسر الملتزمة المتدينة (تتحرر) وتتخلى من بعض التزاماتها، فتظهر النساء متبرجات وقد أبدت زينتهن، وربما تبادلت المصافحة أو ما هو أسوء مع الأقرباء والأصدقاء باعتبار أن اليوم يوم فرح وسرور.

ولا أريد أن أطيل بهذا الكلام المقرح للقلوب الغيورة على الدين والأخلاق والشرف، فنحن لا نريد أن نفرغ حياتنا من الفرح والسرور، لكن ينبغي أن نلتفت إلى أننا حينما نقرأ القرآن نجد ذمّاً ومدحاً للفرح، فهل هذا تناقض في كلمات القرآن؟ كلا طبعاً، لأنه صادر من الله العليم الحكيم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢)، فالفرح المذموم هو ما كان لمحض الأمور الدنيوية المجردة عن الأغراض الأخروية، وفي مثلها قال الله تعالى بصدد بيان فرح قارون بما أُوتي من ثروة طائلة وأموال عظيمة: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٦-٧٧)، ولكن ماذا كانت عاقبته: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ (القصص:٨١) ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ

---

(١) سفينة البحار – مادة عود.

بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص:٨٢).

فهذا نموذج للفرح المذموم، لأنه ليس فيه نصيب لله تعالى، وفي مقابل ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

الذي أريد أن أعرضه هنا هو كيف نحوّل إيماننا بالله تعالى من مستوى النظرية إلى مستوى التطبيق، يعني إذا كنّا كلنا نعلم أنّ هذا التصرف خطأ فلماذا نفعله؟ وإذا كنا نعلم أن هذا التصرف صحيح فلماذا لا نفعله؟ كيف نولّد في أنفسنا الدواعي والدوافع نحو التطبيق بحيث نتعامل مع الله تبارك وتعالى كأننا نراه فإن لم نكن نراه فإنه يرانا؟ وهذا مما لا يشك فيه مؤمن.

فهذه المرأة التي لا تلتزم بالحجاب، وهذا الشاب الذي لا يصلي، وهذا الشخص الذي يلعب الطاولي والدومينو والمؤذن ينادي حيّ على الصلاة، وهؤلاء الذين يغشون في السوق ويأكلون المال بالباطل متذرعين بالحيل الشرعية، وهذا الذين يخون الأمانة، وهذه العشائر التي تحكم بغير ما أنزل الله وتتقاتل فتسفك الدماء وتُيتم الأطفال من أجل الأمور التافهة، وهؤلاء الشباب والشابات الذين يكونون علاقات غير مشروعة تحت عناوين مختلفة كالزمالة ونحوها، كل هؤلاء وغيرهم ألا يعلمون أنّ هذه أفعال محرمة لا يرضاها الله تبارك وتعالى؟ لابد أنهم يعلمون! فما الذي يُجرّئهم على الله؟! ألا يعلم هؤلاء أن أمامنا عقبةً كؤوداً هي الموت، وما بعد الموت أعظم وأدهى؟ أليس هؤلاء مسلمين ويؤمنون بالله – ولو نظرياً على الأقل - ويؤمنون بالآخرة والمعاد والحساب، فلماذا لا ينعكس هذا الإيمان على تصرفاتهم؟ أين الخلل؟

وهنا تذكرت كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما رأيت يقيناً أشبه بشكٍّ مثل الموت)، فإنه يقين مائة بالمائة على مستوى النظرية، لكنك لا تجد من يؤمن به عملياً، بمعنى أنه يستعد له الاستعداد الكامل، وكأنه كُتبَ على غيره،

فترى الإنسان إذا عزم على سفر قد لا يطول شهراً يُعدُّ كل ما يحتاجه أو يُحتمل أنه يحتاج إليه، ويهيّئ جميع أموره حتى الحقير منها، فلماذا لا يستعد بنفس الاستعداد لسفر الآخرة ويحضر زاده لهذا السفر الذي بينه القرآن الكريم: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فإن خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧)، وقال الإمام الحسين (عليه السلام): (وحصل زادك قبل حلول أجلك).

فكيف نرجع إلى الله تعالى ونعود إليه خصوصاً بمناسبة العيد الذي قلنا أن معناه العود إلى الله تبارك وتعالى؟ وكيف نحبب الإيمان إلى نفوسنا وقلوبنا استجابة للعتاب الرقيق الرحيم الذي يوجهه الله تبارك وتعالى إلينا نحن المؤمنين: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦)، ثم يضرب لنا مثالاً لهذه القلوب التي تقسو بسبب الخوض في أمور الدنيا، لكنها ترقّ وتحيى بعد أن يزهر فيها الإيمان وتعمر بذكر الله تعالى، فيقول في الآية التالية: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد: ١٦-١٧)، بل قد وصف في آية أخرى إعمار القلب بالإيمان وذكر الله بالحياة، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤)، ونحن هنا نثير بعض المحفزات النفسية والعقلية والقلبية التي تحثنا نحو التطبيق:

١- إن من شأن كل عاقل أن يرد الجميل بالجميل ويجازي الإحسان بالإحسان ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠) ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧)، ونعم الله تعالى علينا كثيرة سواء على صعيد أبداننا التي هي عبارة عن معامل ومصانع كثيرة تعمل بدقة وإتقان، وأبسط مراجعة لكتاب (الطب محراب الإيمان)[1] تنبئك عن هذا مما يوقف شعر

(١) تأليف: الدكتور السوري خالص جلبي، وهي رسالة دكتوراه في كلية الطب.

رأسك، أو على صعيد الحياة حولنا من كون متناسق وأرض طيبة معطاء ونعم لا تعد وتحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وجزاء الإحسان إحسان مثله، ولما كان الله غنياً عن عباده ولا يمكن أن يصل إليه نفع من أحد، فرَدّ الإحسان بالنسبة إليه طاعته، ومن أشكال شكر النعم أن تطيع المنعم بها، أمّا عصيانه مع نعمه الوفيرة فهذا مما لا يرضاه عاقل.

٢- إنّ كل واحد منا يحب أن تزيد النعم عليه، وهي بيد الله سبحانه المنعم الحقيقي، وقد وعدنا سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٧)، وفي الحديث: (بالشكر تدوم النعم)، فعلى من يريد زيادة النعم كالمال والبنين والجاه والصحة وغيرها فعليه أن يطيع الله ويشكره ليزيده الله من النعم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦).

٣- إنه إذا أخبرنا إنسان ثقة بأن حيواناً مفترساً في هذه الجهة، فإننا سنهرب بالاتجاه المعاكس، ونحذر منه ونتخذ الإجراءات الواقية من الوقوع في الخطر، فإذا أكّد هذا الخبر ثقة آخر ازداد استعدادنا لذلك وكنّا أكثر حزماً، وقد أخبرنا مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ومثلهم من الأوصياء والعلماء أنه سيكون هناك يوم قيامة يثاب فيه المطيع على طاعته ويعاقب العاصي على عصيانه بنارٍ وقودها الناس والحجارة، أفلا يوجب هذا البيان المؤكد الحذر والابتعاد عن كل ما يورطنا في هذه النار المتأججة، وقد وصفها القرآن الكريم بمشاهد مرعبة، وأخبرنا أنّ معصية الله سبحانه توقعنا فيها، وأنّ طاعته تورثنا جنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧)؟.

٤- أن نسأل أنفسنا سؤالاً: ماذا يخسر الإنسان لو أطاع الله سبحانه واستقام على الشريعة؟!. لا يخسر شيئاً، بل هو يعيش ويتمتع بالحياة كما يفعل البعيد عن الله سبحانه، وفوق ذلك له المكاسب الدنيوية والأخروية التي يحققها

له الإيمان بالله سبحانه والسير على شريعته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤)، وقد اتبع هذا الأسلوب الإمام الصادق (عليه السلام) حين قال لأحدهم: (يا هذا إن كان ما تقول أنت – بأنه لا جنة ولا نار ولا حساب حق- فنحن وأنتم سواء، فإننا نأكل كما تأكلون وننكح كما تنكحون، وإن كان الأمر كما نقول هلكتم ونجونا)[1] وهو أسلوب لا يستطيع أن يرفضه أي عاقل.

٥- أن نلتفت إلى أن الله تعالى مطلّع علينا ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وقد جعل على كل واحد منّا ملائكة يحصون الأعمال في كتابٍ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، وجعل الشهود على ذلك من أعضائنا التي نمارس بها حياتنا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٠-٢٣)، فإذا التفتنا إلى هذه الحقائق فسنكون دقيقين في تصرفاتنا، وسنحسب ألف حساب قبل أن نورط أنفسنا في المعصية.

٦- إن الإنسان الذي يمتنع عن إعطاء شيء من نفسه أو ماله لطاعة الله تعالى فإنه سيدفع أكثر منها في معصية الله وهو راغم، وستكون عليه حسرة يوم القيامة، فلا يدفع الحقوق الشرعية في أمواله لكنه يدفع أموالاً كثيرة في أمور تافهة تجرّ عليه حسرة يوم القيامة، أو يقصّر في العبادة أو يتكاسل عن قضاء

---

(١) الكافي: ١/٧٨.

حوائج المؤمنين فيبتليه الله بمشاغل كان يمكن أن يدفعها الله عنه لو لم يقصر في طاعة الله فيفوز بالآخرة ويكفيه الله مؤونة الدنيا وتعبها.

٧- إن من يطيع الله سبحانه ويتجنب معصيته يعيش لذة الانتصار على أعدى أعدائه، وهي النفس الأمارة بالسوء كما وصفها الحديث الشريف، وكلّما كان تمرد النفس على الترك قوياً كان الفعل أكثر لذة، مثلاً: تعرض أمامك امرأة متبرجة قد أظهرت مفاتنها أو طالبة جامعية أو زميلة في دائرة تبرعت بإنشاء علاقة عاطفية معك فتنتصر أنت على نفسك الطموحة إلى ذلك، فتعيش لذة الانتصار، وهو ما أشار إليه الحديث الشريف: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها لله تعالى أبدله الله نوراً وإيماناً يجد حلاوته في قلبه)، أو يغيظك شخص ويسيء إليك وأنت قادر على رد إساءته، فتتركها لله تعالى وتنتصر على نفسك التي ترغب بالتشفي والانتقام، وهذا معنى الحديث: (ما جرعة أحبُّ إليّ من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها)[1].

وتوجد نقاط كثيرة لا أعتقد أن الوقت يسع لها.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لطاعته، فتكون أيامنا كلّها أعياداً، والعيد الأكبر حين نلقاه تبارك وتعالى وهو راضٍ عنّا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

---

(١) الكافي: ١٠٩/٢.

موعظة وإرشادات في فصل الصيف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله كما هو أهله وصلى الله على سيد خلقه وأحبهم إليه محمد وآله الطيبين الطاهرين .

يبدأ موسم الصيف يوم (٦/٢١) ولا يتحقق باقتراب الشمس من الأرض كما هو المتوهم، بل على العكس فإن الشمس في الشتاء أقرب إلى الأرض منها في الصيف - وهذا من المفارقات - وإنما يتحقق الصيف برأسية الشمس على النصف الشمالي للأرض، أي إن أشعتها تصل إلى الأرض مباشرة وبصورة رأسية مقابل ميلان أشعة الشمس وانكسارها في توجهها إلى الأرض في فصل الشتاء، وهذا وحده كاف لنقل المناخ من طقس شديد البرودة يقل عن الصفر المئوي بكثير إلى طقس تزيد حرارته عن خمسين درجه مئوية، هذا والمسافة بين الشمس والأرض حوالي (٩٣ مليون ميل) (على ما أتذكر)، فكيف والشمس تقترب من أرض المحشر يوم القيامة حتى تكون المسافة ميلاً واحداً فقط، هذا لو فرضنا إن شمس الآخرة كشمس الدنيا رقيقة هادئة خلقت ليتنعموا بدفئها ولتعم الحياة بوجودها، ولم يسجرها جبار السماوات والأرض غضباً على أهل المعاصي الذين تحدّوه في الدنيا وتمرّدوا عليه واستكبروا ونازعوه سلطانه، فما هو حالنا يومئذ؟ نستجير بالله من غضبه. وتستطيع أن تشبه الحال

---

(١) محاضرتان ألقيتا على فضلاء وطلبة الحوزة العلمية في مسجد الرأس الشريف يومي ٢٠ و ٢١ ربيع الثاني/١٤٢٣هـ (٢ و ٢٠٠٢/٧/٣م)

بما يفعله بعض الغافلين من تقريب مصدر النار إلى إناء فيه بعض الحشرات ليحرقها بها، مع الفارق الكبير بين نار الدنيا والآخرة .

القسم الأول: أخذ العبرة من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

وتأسياً برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان يأخذ عِظة وعِبرة من كل ما حوله ليذّكر نفسه ويرقق قلبه، وهو الذي كان في ذكر دائم لله تعالى وقلبه عرش الله تبارك وتعالى، فالمروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان إذا دخل الحمام ونظر إلى الماء الساخن تذكر جهنم وحميمها الذي وصفه الله تبارك وتعالى ﴿وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾(محمد: ١٥)، فيقول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندئذ: (نِعم البيت الحمام؛ يزيل الدرن ويذكّر بالآخرة). وهو الذي ما غفل عنها طرفة عين، وقد حرص المعصومون على إلفات نظرنا إلى ذلك، فمثلاً ورد في خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في آخر جمعة من شعبان والتي استقبل بها شهر رمضان قوله: (وَاذكرُوا بِجُوْعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فِيْهِ جُوْعَ يَومِ القِيَامَةِ وَعَطَشِهِ)

موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) مع أخيه عقيل:

وعندما جاء عقيل إلى أخيه أمير المؤمنين (عليه السلام) طالبا منه الزيادة في عطائه لأنه كثير العيال وهم شعث غبر، فأحمى أمير المؤمنين حديدة وأدناها منه وكان بصيراً، فظن أنها صرّة مال، فلما اكتوى بنارها انكفأ يئن من الألم، وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) نفسه هذه الحادثة فقال في بعض خطبه: (فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ ميسَمِهَا – وهي المكواة – فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ

الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ؛ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ؟ أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظًى؟)[1].

الاتعاظ والاعتبار بما يمر بنا:

ومحل الشاهد فما أحوجنا إلى الاتعاظ والاعتبار بكل ما يمر بنا أو نمر به، وها هو ذا فصل الصيف يحلّ علينا، فلنتذكر بحرّه حرّ جهنم وبزفيره زفيرها، وأنقل لكم بعض الأخبار في وصف نار جهنم وحرها وجحيمها، ولو لم نكن من أهل الغفلة لما احتجنا إلى تلك الأخبار، لأن شواهدها كثيرة حولنا، فكم جرب أحدنا ماءً ساخناً على النار أو في الحمام يلسع جلده الرقيق أو زيتاً أعد للقلي ينسكب على جلده فيتمزق ويتلف وربما أدى به إلى الوفاة!، هذه هي المفارقة التي يعيشها الإنسان: ضعف في القابلية ورقة لا يتحمل بها الأذى البسيط، لكنه يرتكب بحماقته ما يورده العذاب العظيم الخالد، كالمرأة السافرة، أو تارك الصلاة، أو الذي لا يؤدي حقوق الله في أمواله من خمس وزكاة وغيرها، أو رجل وامرأة تجمعهما علاقات جنسية غير مشروعة، أو يمارسون أفعالاً منكرة كالاستمناء والمساحقة ومشاهدة الأفلام الخليعة، أو يخوض في الغيبة وتفسيق المؤمنين والانتقاص منهم خصوصاً العلماء، فضلاً عن الذي يظلم الناس في أنفسهم وأموالهم بأي أشكال الظلم كالسرقة والغصب والغش والمعاملات المحرمة، فإن ظلم الناس ذنب لا يتركه الله تعالى.

المفارقة الكبيرة التي يسجلها القران ودعاء كميل:

أقول إن هؤلاء وأمثالهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم، لكن الله تعالى يرثي لحالهم ويقول: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (البقرة: ١٧٥) وهم لا

---

(١) نهج البلاغة- خطبة ٢٢٤

يستطيعون الصبر على ما هو لا شيء بالنسبة إلى النار، ولكنها الغفلة والجهل واتباع الهوى والأنانية والاستكبار، هذه المفارقة التي يسجلها أمير المؤمنين في دعائه المعروف الذي علمه لصاحبه كميل بن زياد: (يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي)، ثم يقول (يا رَبِّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عَنْ قَليلٍ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها وَما يَجْري فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى أَهْلِها، عَلى أَنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَليلٌ مَكْثُهُ، يَسيرٌ بَقاؤُهُ، قَصيرٌ مُدَّتُهُ، فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الآخِرَةِ وَجَليلِ وُقُوعِ الْمَكارِهِ فيها، وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِه؛ لأَنَّهُ لا يَكُونُ إِلاّ عَنْ غَضَبِكَ وَانْتِقامِكَ وَسَخَطِكَ، وَهذا ما لا تَقُومُ لَهُ السَّماواتُ وَالأَرْضُ، يا سَيِّدي فَكَيْفَ بي وَأَنَا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الْحَقيرُ الْمِسْكينُ الْمُسْتَكينُ؟، يا إِلهي وَرَبّي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ لأَيِّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَشْكُو وَلِما مِنْها أَضِجُّ وَأَبْكي؟ لأَليمِ الْعَذابِ وَشِدَّتِه، أَمْ لِطُولِ الْبَلاءِ وَمُدَّتِه)، ثم ينتقل إلى ذكر العقوبات الروحية التي هي أقسى من المادية فيقول: (فَلَئِنْ صَيَّرْتَني لِلْعُقُوباتِ مَعَ أَعْدائِكَ وَجَمَعْتَ بَيْني وَبَيْنَ أَهْلِ بَلائِكَ وَفَرَّقْتَ بَيْني وَبَيْنَ أَحِبّائِكَ وَأَوْلِيائِكَ، فَهَبْني يا إِلهي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَرَبّي صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ؟، وَهَبْني صَبَرْتُ عَلى حَرِّ نارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلى كَرامَتِكَ؟).

الأخبار في وصف نار جهنم:

وأعود إلى نقل تلك الأخبار، فقد روي بسند صحيح عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال:(قلت له: يا ابن رسول الله خوّفني[1] فإن قلبي قد قسى. فقال: يا أبا محمد، استعد للحياة الطويلة، فإن جبرائيل جاء على

---

(١) في وصية لأمير المؤمنين لابنه الحسن (عليهما السلام) (قال: يا بني أحيِ قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة) (نهج البلاغة، الجزء الثالث).

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو قاطب وقد كان قبل ذلك يجيء وهو مبتسم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا جبرائيل جئتني اليوم قاطباً؟ فقال: يا محمد، قد وضعت منافخ النار. فقال:وما منافخ النار يا جبرائيل؟ فقال: يا محمد، إن الله عز وجل أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى احمرّت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى اسودّت، فهي سوداء، مظلمة، لو أن قطرة من الضريع (الذي هو عرق أهل جهنم من قيح وصديد فروج الزناة يغلى في قدور جهنم ويسقى لأهل جهنم بدل الماء) قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو أن حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها، ولو أن سربالاً من سرابيل أهل النار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه. قال: فبكى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبكى جبرائيل، فبعث إليهما ملكاً فقال لهما: إن ربكما يقرئكما السلام ويقول: قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً أعذبكما عليه، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): فما رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جبرائيل مبتسماً بعد ذلك، ثم قال: إن أهل النار يعظمون النار، وإن أهل الجنة يعظمون الجنة والنعيم، وإن جهنم إذا دخلوها هووا فيها مسيرة سبعين عاماً، فإذا بلغوا أعلاها قمعوا بمقامع الحديد[1] أعيدوا في دركها، فهذه حالهم، وهو قول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج:٢٢)، ثم تبدل جلودهم غير الجلود التي كانت عليهم، قال أبو عبد الله (عليه السلام): حسبك[2]؟ قلت: حسبي، حسبي)[3].

---

(١) لأنهم يحاولون الهرب منها.

(٢) أي هل تكفي هذه الموعظة يا أبا بصير؟

(٣) بحار الأنوار: ٨/٢٨٠.

المشاهد المهولة لنار جهنم:

وهذه الآية الشريفة التي استشهد بها الإمام تبين أحد المشاهد المهولة لنار جهنم[1] ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبارزوا الله بالمعصية وتمردوا عليه ولم يلتزموا بأوامره ﴿قُطِّعَتْ﴾ وفصّلت ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الساخن حيث ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾، وبعد ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ﴾ أي سياط ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ أحمته النار، يا للهول!! فيعجزون عن تحمل العذاب ويحاولون الفرار من هذا الغمّ والبلاء الشديد، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ويأتيهم الجواب بكل إهانة وإذلال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج: ١٩-٢٢).

وفي آية أخرى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان:٤٩) استخفافاً واستهزاءً بهم حيث كانوا يظنون في الدنيا أنهم أهل العزة والقوة والمنعة، فليست الآخرة كالدنيا يفعل فيها الظالمون مايشاؤون، أما في الآخرة فينادى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر:١٦).

وفي آية أخرى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر عقابهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ أي لا تنطبق أبصارهم من الخوف والرعب وهول ما نزل بهم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين وينظرون في ذلّ وخشوع ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها إلى السماء ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ فلا يغمضون عيونهم بل هي شاخصة دائماً ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾(إبراهيم: ٤٢-٤٣) وهو كناية عن دهشتهم بحيث فقدوا عقولهم وأصبحت فارغة.

وفي آية مشابهة من سورة يس: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ هؤلاء المتمردين على طاعة الله تعالى ﴿أَغْلاَلاً﴾ وقيوداً تصفد أيديهم وتجمعها إلى

---

(١) اخترت بعض الآيات مع شرحها شرحاً مزجياً كما تعودنا عليه في الفقه أي أضيف مني كلمات لشرحها.

رؤوسهم ﴿فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن وهو موضع اللحية ومجمع عظمي اللحيين ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ (يس:٨) مرفوعة رؤوسهم لا يستطيعون خفضها.

إنها مشاهد تستوقف المتأمل طويلاً، وفي آية أخرى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين استكبروا عن طاعة الله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ أي مقرونين بعضهم إلى بعض أو إلى الشياطين أو أن أعضائهم كالأيدي والأرجل مقرنة ﴿فِي الأَصْفَادِ﴾ والقيود، ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ دهن أسود لزج منتن تشتعل فيه النار بسرعة أو من صفر متناهٍ حرّه ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾(إبراهيم: ٤٩-٥٠)، تعلو وجوههم النار، وخصت بالذكر لأنها أعز الأعضاء وأشرفها، فعبر بها عن الكل، والآيات كثيرة في هذا المجال تحتاج إلى كتاب كامل لذكرها وتقريب صورتها للأذهان.

مشهد من مشاهد ليلة المعراج:

ونعود إلى الأخبار، ففي خبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (..دخلت (ليلة المعراج) سماء الدنيا فما لقيني ملك إلا وهو ضاحك مستبشر، حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقاً منه كريه المنظر ظاهر الغضب، فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء، إلا انه لم يضحك ولم أر فيه من الاستبشار ما رأيت ممن ضحك من الملائكة، فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ فإنني قد فزعت منه، فقال: يجوز[1] أن تفزع منه، فكلنا يفزع منه، إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط ولم يزل منذ ولاه الله جهنم يزداد كل يوم غضباً وغيضاً على أعداء الله وأهل معصيته، ينتقم الله به منهم، ولو ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك، فسلمت عليه، فرد السلام وبشرني بالجنة، فقلت

(١) أي يحق لك.

لجبرائيل - وجبرائيل بالمكان الذي وصفه الله: مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ - ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال له جبرائيل: يا مالك، أرِ محمداً النار. فكشف عنها غطاءها وفتح باباً منها، فخرج منها لهبٌ ساطعٌ في السماء وفارت وارتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت، فقلت:يا جبرائيل؛ قل له فليرد عليها غطاءها، فأمرها فقال لها: ارجعي، فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه...)[1].

وصف لأحوال أهل النار:

وروي بسند معتبر عن الإمام الصادق (عليه السلام): ما خلق الله خلقاً إلا جعل له في الجنة منزلاً وفي النار منزلاً، فإذا سكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة أشرفوا، فيشرفون على أهل النار وترفع لهم منازلهم فيها، ثم يقال لهم: هذه منازلكم التي في النار لو عصيتم الله لدخلتموها.. قال: فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة في ذلك اليوم فرحاً لما صرف عنهم من العذاب، ثم ينادي منادٍ: يا أهل النار، ارفعوا رؤوسكم[2]، فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم في الجنة وما فيها من النعيم، فيقال لهم: هذه منازلكم التي لو أطعتم ربكم لدخلتموها، قال: فلو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار حزناً، فيورث هؤلاء منازل هؤلاء، وذلك قول الله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(المؤمنون: ١٠-١١)[3].

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (وأما أهل المعصية فخلّدهم في النار، وأوثق منهم الأقدام، وغل منهم الأيدي إلى الأعناق، وألبس

---

(١) تفسير الصافي: ١٦٧/٣.

(٢) لاحظ الفرق بين الكلمتين أهل الجنة يقول لهم (أشرفوا) لأنهم في علو وأهل النار يقول لهم (ارفعوا) لأنهم في سفال وحضيض.

(٣) الحديث عن المصدر السابق: ٣٩٧/٣.

أجسادهم[١] سرابيل القطران، وقطعت لهم مقطعات من النار. هم في عذاب قد اشتد حرّه، ونار قد أطبق على أهلها فلا يفتح عنهم أبداً، ولا يدخل عليهم ريح أبداً، ولا ينقضي منهم الغمّ أبداً، والعذاب أبداً شديد، والعقاب أبداً جديد، لا الدار زائلة فتفنى، ولا آجال القوم تقضى)[٢].

وروي بسند معتبر عن الإمام الصادق[٣] (عليه السلام): (إن في النار لناراً يتعوذ منها أهل النار، ما خلقت إلا لكل متكبر[٤] جبار عنيد، ولكل شيطان مريد[٥]، ولكل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. وكل ناصب لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال: إن أهون الناس عذاباً يوم القيامة لرجل في

---

(١) يصفهم وكأنه ذهب إلى هناك ورآهم فعلمه (عليه السلام) حاضر لأنه هو الذي يقول: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً).

(٢) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي (ع) لابن الدمشقي: ٣٣٦/١.

(٣) بحار الأنوار: ٦٤٩/٣١.

(٤) لعل أحدنا يقول أنا لست متكبراً أقول فليرجع إلى الكتب الأخلاقية فمعاني التكبر كثيرة وتشمل الكثير.

(٥) وهذه أيضاً شاملة للكثير (شياطين الإنس والجن) فمن يقول نحن لسنا كذلك أقول له إن تعريف الشيطان هو الذي يصد عن طاعة الله ﴿لأقعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ المُستَقِيمَ﴾ فكم شخص إن لم أقل كلنا قاعد لعباد الله يضللهم عنه تعالى يمنة ويسرة فالمرأة السافرة التي تمشي في الشارع مبرزة مفاتنها هذه لسان حالها يقول للشباب ﴿لأقعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ المُستَقِيمَ وَلَأُضِلَّنَّهُم وَلَأُمَنِّيَنَّهُم﴾ فلا يقول أحدكم إن هذا الحديث لا ينطبق علي بل ينطبق علينا جميعاً فنحن الحوزويون بإمكاننا أن نضلل الناس إذا كنا نريد الدنيا ونتبع أهواءنا وكما تسمع إن الحوزة (بعضها) ضللت كثيراً من الناس تأخذهم يمنة ويسرة وتقدح في أذهانهم الشبهات فيوجد الكثير هكذا فهؤلاء مصاديق لهذا الحديث فالحديث يشمل كل شخص.

ضحضاح[١] من نار، عليه نعلان من نار وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى[٢] أن في النار أحداً أشد عذاباً منه، وما في النار أهون عذاباً منه).

وفي سورة الفرقان (الآيات ١١-١٤): ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾ ويشمل العنوان من كذب عملياً بالعصيان والتمرد على أوامر الشريعة وإن كان يؤمن نظرياً بيوم الحساب[٣] ﴿سَعِيراً﴾ وهي النار الشديدة ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي كانوا منها بمرأى الناظر في البعد ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً﴾ أي صوت تغيظ ﴿وَزَفِيراً﴾ كزفير المغتاظ، أو أن هذين الوصفين لزبانيتها ونسبا لها من باب حذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(يوسف:٨٢) أي أهل القرية، فحذف المضاف[٤]، ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ﴾ قد قرنت أيديهم إلى

---

(١) ما رقَّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين فاستعاره للنار (النهاية:٣/٧٥).

(٢) الشخص الذي في هذا العذاب لا يرى في الناس اشد عذابا من حاله

(٣) لا يفيد الإيمان النظري: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .....﴾ فالإيمان ينعكس على حياتك عمليا فهل أعمالك تدل على أنك لست من الذين يكذبون بالساعة فنحن والحمد لله نتنازع على أشياء تافهة دنيوية فالذي يقرأ هذه الآية لا يقول إنها لا تشملني لأني لا أكذب بالساعة فليس الكافر فقط يكذب بالساعة وإنما كذلك نحن عملياً نكذب بها .

ينقل عن السيد السبزواري (قدس سره) أنه سئل هل يوجد جنة ونار قال: لا!! قيل: وكيف ذلك؟ قال: لو كان يوجد جنة ونار لانعكست آثارها على الناس فلا أرى أحداً يبدو على أفعاله أنه يوجد جنة ونار فلا أرى أحداً بهذا المستوى.

(٤) أو تقول أن النار تصبح كائناً حياً له صوت وله زفير.

أعناقهم بالأغلال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان الضيق الذي مرّ وصفه[1] ﴿ثُبُوراً﴾، أي دعوا على أنفسهم بالهلاك ليتخلصوا من هذا العذاب، فيأتيهم الجواب متهكماً ومنذراً بمراحل آتية من العذاب: ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ لكثرة أنواع عذابكم، فلكل نوع ثبور، أو لدوامه فلكل وقت ثبور.

هذه بعض الصور المرعبة لنار جهنم، لكن الناس في غفلة هم أوقعوا أنفسهم فيها بأعراضهم عن آيات الله وبياناته الكثيرة التي لم تدع لأحد عذراً، لذلك يتأسف ربهم على وقوعهم بالمعصية رغم هذه الإنذارات المتكررة: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون، أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ، وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس: ٣٠-٣٢) ثم يتساءل الله تبارك وتعالى على لسان نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)[2]: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ[3] كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً﴾ (الفرقان: ١٥-١٦).

---

(١) ضيق ونار وغل الايدي إلى الاعناق كما سمعنا فيما سبق فوق كل ذلك اطبق عليه أي اغلق عليه أي لانفس ولا ريح يدخل لهم وانما عذاب مؤبد قاسي.

(٢) في مقابل وصف النار فقد وصف الله تعالى الجنة وصفا جميلاً لا يسع المجال لذكره فلهذا يأتي الاستفهام بعد ذلك ﴿أذَلِكَ خَيرٌ أمْ جَنّةُ الخُلدِ ...﴾.

(٣) فماذا بكم؟ ألا توجد عندكم معايير تميزون بها هذه التصرفات التي أوقعتم أنفسكم بها وأردتكم، فيا أيتها المرأة السافرة وأنت أيها الشاب الذي لا تصلي فيؤذن المؤذن وأنت في المقهى تلعب الطاولي وأنت الذي لم تدفع الحقوق الشرعية هل سوف تأخذ أموالك معك هناك وأنتم أيها الحوزويون الذين تقصرون في واجبكم أو تقدمون مصالحكم الدنيوية على المصالح الاجتماعية والأخروية فالخطاب لنا جميعاً لي ولكم.

وفصول يوم القيامة والمراحل التي يمر بها الإنسان في الآخرة كثيرة، يكفي أن أحدها الموت وثانيها القبر ووحشته وسؤاله وأهواله وما خفي أعظم[1]، لكني اكتفيت بفصل واحد منها وهو نار جهنم بحسب المناسبة، وهي الاتعاظ بحرارة الصيف، فهذا هو القسم الأول من الحديث، أما القسم الثاني فإرشاد وتصحيح لبعض الظواهر الاجتماعية المنحرفة التي تحصل في فصل الصيف ونتناولها بإذن الله تعالى ضمن نقاط:

القسم الثاني: الظواهر الاجتماعية المنحرفة التي تحصل في فصل الصيف:

(الظاهرة الأولى): تصدر كلمات من الناس عندما يشتد الحرُّ توحي بالتأفف والانزعاج والسخط، وهو يعني الاعتراض على قضاء الله تعالى ومشيئته، وهذا من الذنوب الكبيرة التي تنقص بها درجة الإنسان.

المؤمن من اتصف بالرضا:

ولذلك يلفت الإمام الحسين (عليه السلام) نظر عائلته إلى هذا الأمر حين جاء ليودعهم الوداع الأخير، قال (عليه السلام): (ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من أجوركم)، لأن الإنسان المؤمن يتصف بالرضا على ما يختاره الله تعالى سواء على مستوى الأمور التشريعية كوجوب الصوم أو الخمس أو الجهاد أو ولاية أهل البيت (عليه السلام) أو حرمة الزنا والخمر، أو على مستوى الأمور التكوينية كالفقر والمرض وشدة الحر والبرد وإن خالفت هوى النفس، قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ

---

(١) جزى الله مؤلف مفاتيح الجنان الشيخ عباس القمي (قدس سره) خيراً فهو ذكر ذلك كله في كتاب منازل الآخرة.

فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)، فترى أن من شروط الصدق في الإيمان عدم الاعتراض على ما اختاره الله تبارك وتعالى.

الاعتراض مرتبة من مراتب الشرك:

فيعتبر الاعتراض مرتبة من مراتب الشرك، بمعنى منافاتها للإخلاص، فعن الإمام الصادق (عليه السلام): (لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان، ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ألا صنع خلاف الذي صنع؟ أو وجدوا ذلك في قلوبهم، لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية: (فلا وربِّكَ..) ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): فعليكم بالتسليم)[1]، وذمتهم الآية الشريفة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أعمالهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ – سواء على مستوى التشريع أو التكوين كما قلنا- فَأَحْبَطَ أعمالهُمْ﴾ (محمد: ٨-٩).

ولذا ورد التحذير الشديد من الاعتراض على قضاء الله تعالى في جميع الأمور، والحث الأكيد على استشعار الرضا والتسليم لقضاء الله تبارك وتعالى، فعن الصادق (عليه السلام): (إن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عز وجل)، وعن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: (الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحب أو كره لم يقضِ الله عز وجل له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له)، وسئل الإمام الصادق (عليه السلام): بأي شيء علم المؤمن أنه مؤمن؟ قال (عليه السلام): (بالتسليم لله والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط)، وعن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: (الزهد عشرة أجزاء، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، و أعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، و أعلى درجة اليقين أدنى

---

(١) القلب السليم: ٢/ ٣٣٣.

درجة الرضا)، وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عن الله سبحانه)[١].

كيف نستشعر في قلوبنا الرضا والتسليم بقضاء الله تعالى:

فكيف نستشعر في قلوبنا الرضا والتسليم بقضاء الله تعالى في جميع الأمور والابتلاءات والمصائب والصعوبات والشدائد والمحن التي تمر بنا؟

نقول في الجواب: بالالتفات إلى عدة أمور تطبيقاً للمعنى الحقيقي لذكر الله على كل حال، الذي هو من أعظم الأعمال، وقلنا في تفسيره[٢]: إنك تستحضر في كل حال المعاني التي يريدها الله تبارك وتعالى منك في ذلك الحال، فتكون على اتصال دائم به، وتحيى معه دائماً، فمن هذه الأمور:

١- إن الله رحيم وهو أرحم بعباده من أنفسهم ومن الأمّ الشفيقة، فلا يختار لهم إلا ما يصلحهم، فقد ورد في الحديث القدسي: (إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى فأغنيه، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر فأفقره، ومنهم من لا

---

(١) الأحاديث كلها في وسائل الشيعة: كتاب الطهارة، أبواب الدفن، باب ٧٥.

(٢) الإمام يشرحه ويقول: (الذكر ليس أن تلصق لسانك في حنكك وتقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وإن كان هذا من الذكر) ولكن الأهم من هذا انك تستحضر المعاني .ففي القتال مثلاً ﴿وَأَعِدُوا لَهُم مَا استَطَعتُم .... وَاذكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٤١) فما معنى ذكراً كثيراً هنا؟ أقول: ليس معناه سبحان الله والحمد لله .. وإنما تحضر المعاني الإلهية التي ترتبط بالموقف الذي أنت فيه وأنا (والكلام لسماحة الشيخ) في بعض كتاباتي (وهو كتاب شكوى القرآن) استحضرت ١٩ معنىً لذكر الله فالمجاهد في سبيل الله عندما يستحضرها يكون شيئا آخر غير ما يكون في حال غيره فنحن نقول ذكر الله على كل حال فمثلاً حال الحر الذي نحن فيه الآن ماذا نذكر فهنا أقول عدة أمور منها أعلاه.

يصلحه إلا المرض فأمرضه) وهكذا، فكل ما يختاره الله تعالى لنا فهو خير، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاءً إلا كان خيراً له، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): قال الله عز وجل: (عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له، فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، أكتبه يا محمد من الصديقين عندي)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: إن فيما أوحى الله إلى موسى بن عمران (عليه السلام): (يا موسى ما خلقت خلقاً أحب إلي من عبدي المؤمن، وإني إنما ابتليته لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، أكتبه في الصديقين عندي إذا عمل برضاي وأطاع أمري)[1].

وعليه أن يضيف إلى هذا الأمر جهله بعواقب الأمور، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦)، فما يدريك أن الحر الذي تنزعج منه هو شرٌ لك، بل هو خير لك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلفوائده الصحية والنفسية والاجتماعية والبيئية مما لا مجال لذكره الآن، وأما في الآخرة فلمجموع المعاني التي نحن بصددها، يكفي أن تعلم أن أهل المعرفة قالوا: إن النار نفسها رحمة للعباد، لأن بعض النفوس الخبيثة والقلوب القاسية لا تفلح كل شدائد البرزخ والقيامة في تطهيرها، فتحتاج إلى علاج أخير وهي النار، كما في المثل: (آخر الدواء الكيّ)، لتتأهل بعدها للدخول إلى الجنة، فنار جهنم رحمة أيضاً.

---

(١) الأحاديث في نفس المصدر المذكور.

٢- إن قضاء الله جار في عباده سواء رضي الإنسان به أم لم يرض، فلماذا لا يجعل هذا القضاء فرصة للطاعة والقربة إلى الله تعالى مادام إن سخطه واعتراضهُ على البلاء لا يدفع عنه القضاء، لذا جاء في بعض الأحاديث (إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت موزور) فماذا تختار بربك؟[١].

٣-إن الإنسان المؤمن لابد أن يتعرض للبلاء في دار الدنيا: ﴿ألم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ١-٢)، فعن الصادق (عليه السلام): (إن عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم)، وعنه (عليه السلام): (إنما المؤمن بمنزلة كفة الميزان كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه)، وعن موسى ابن جعفر (عليه السلام): (أيٌّ من صفت له دنياه فاتهمه على دينه)[٢]، وذكر عند الإمام الصادق (عليه السلام) البلاء وما يخص الله به المؤمن، فقال: سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من أشد الناس بلاءً في الدنيا؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (النبيون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلي المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه)[٣]، وفي ضوء هذه الأحاديث يستشعر الإنسان المؤمن السرور عند حلول البلاء به؛ لأنه يكشف عن إيمانه وتعاهد الله إياه بيد رحمته، وبالتأكيد فإن بلاءً يستطيع تحمله

---

(١) وكم سيشعر الإنسان بالراحة والاطمئنان وعدم الأسى على ما يفوته وعدم الفرح بما يأتيه فيبذل كل ما يريده الله منه من أموال وأنفس لأنه متيقن أن ما يريده الله سيأخذه سواءً شاء أم أبى، فليتنا نربي ونروض أنفسنا على هذه القواعد الثابتة.

(٢) وبموجب هذا الحديث لا بد أن نكون قلقين حينما لا نمر ببلاء صغيراً كان أو عظيماً لنتعرف على صحة إيماننا وكوننا في عين الله تعالى ورعايته واستمرار تربيته.

(٣) الأحاديث في الوسائل: كتاب الطهارة، أبواب الدفن، باب ٧٧.

وقد تعود عليه – كالحرّ - أسهل عليه من بلاء لا يعرفه ولا يعلم بقدرته على الصبر عليه ما دام لا بدّ من بلاء.

٤-أن يتذكر ما وعد الله الصابرين على البلاء والمحتسبين له عند الله تعالى، فعن الإمام الصادق (عليه السلام): (من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد)، وعنه قال: (إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبر مظلّ عليه، وتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مسائلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم فإن عجزتم فأنا دونه)، وعنه (عليه السلام): (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان)[1]، وللصبر أقسام كما نعلم: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على قضاء الله الذي نحن بصدده.

٥- إننا جميعاً ندعو أن نكون ممن يحظى بنصرة الإمام المنتظر (عليه السلام) وصحبته والجهاد بين يديه، فأيهما أسرع استجابة لدعوة الإمام ونصرته: المؤمن الذي خاض المحن والشدائد والصعوبات وواجهها بصبر وجلد، أم المترف المتنعم الذي يتبرم بأبسط بلاء يمر به؟ فإن رغبتم في نصرة الإمام (عليه السلام) فوطنوا أنفسكم على كل الصعوبات، فإنها من مؤهلاتكم لهذا الفوز العظيم، والذي يثقل عليه هذا البلاء البسيط لا يحظى بذلك الشرف كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في مثلها: (إذا كنتم من الحر ومن البرد تفرون، فأنتم من السيف أفر).

٦- إن أي شيء لا ترضاه يصدر من محبوب لك، فلكي لا يؤثر فيك تأثيراً سيئاً تذكر ما يحبّب[2] ذلك الشخص إليك، والله تبارك وتعالى لا تحصى

---

(١) الأحاديث في نفس المصدر باب ٧٦.

(٢) أي تلتفت إلى النقاط الايجابية حتى تذوب النقطة السلبية.

نعمه عليك، فلماذا تنساها كلها وتذكر فقط هذا البلاء الذي نزل بك؟ وبهذا الصدد ينقل أهل المعرفة رواية واعية ومما جاء فيها: إن إخوة يوسف (عليه السلام) كانوا خجلين منه بعدما عرفوه لما صدر منهم اتجاهه، وكانوا يجلسون معه صباحاً ومساءً إلى المائدة، ولشدة حيائهم منه طلبوا منه إعفائهم عن الحضور معه، قال لهم: أنتم سبب عزتي ورفعتي؛ لأن المصريين كانوا يعتبرونني قبل مجيئكم غلاماً وصلت إلى السلطنة، وعندما جئتم عرفوا أني لست غلاماً، بل ابن نبي ومن أولاد إبراهيم الخليل (عليه السلام)[1]، هذا مع قبيح فعلهم معه، فكيف يكون موقفنا اتجاه المنعم المتفضل المنان؟

وقد عشنا في أيام صلاة الجمعة المباركة في مسجد الكوفة المعظم سنة ١٩٩٨ موجة شديدة من الحر وصلت إلى ٦٠ في الظل، وفي حر الظهيرة في شهر تموز كنا نجلس الساعتين والثلاث في الشمس المحرقة حتى كانت جباهنا تكتوي بحرارة موضع السجود مع ما يقتضيه الزي الديني من كثرة الملابس، وكنا جميعا مسرورين مشغولين بلطف الله علينا وكرمه الذي أتحفنا بهذه النعمة العظيمة، ورغم أنه كان يحجز لي مكان قرب إمام الصلاة وهو السيد (قده) إلا أنني كنت أتعمد الصلاة مع المؤمنين في باحة المسجد أحياناً، وفي الحقيقة فإن هذا معنى واسع تستطيع أن تطبقه في حياتك مع الآخرين أيضاً، فعندما يسيء لك شخص تذكر منه النقاط الإيجابية فسيتبدل غضبك عليه إلى حب له، لذا ورد في الحديث: (اذكر اثنين وانسَ اثنين: اذكر إساءتك للآخرين وإحسان الآخرين إليك، وانسَ إحسانك للآخرين وإساءة الآخرين إليك)

(الظاهرة الثانية): وهي ليست بعيدة عن الأولى، فإن الكثير من الناس يهربون من الحر ويذهبون إلى (الاصطياف) في بعض المناطق السياحية أو

---

(١) القلب السليم: ٢/ ٣٦٧. هذا هو أدب الأنبياء فقد ذكر حسناتهم وغض النظر عن إساءتهم إليه.

البلدان الغربية، وهو عمل محرم إذا اقترن بمحرمات، كما ينقل عن بعض أثرياء الخليج الذين يهدرون أموالاً طائلة على الخمور والفاسقات في بعض الجزر الغربية فيجرون إلى أنفسهم عقاباً أليما خالداً من أجل لذة وقتية زائلة، وبعضهم يذهب إلى أماكن مختلطة بشكل غير مشروع وفيها غناء وموسيقى إلى غيرها من المحرمات، وهو حال مؤلم أن يعود المسلمون إلى هذه الجاهلية الرعناء بعد أن هداهم الله للإيمان، ويقعون فريسة الأعداء، فيسلبونهم أموالهم وعزتهم وشرفهم، والأهم من ذلك دينهم وأخلاقهم، والأفضع من ذلك أن يذهبوا إلى هناك مع نسائهم.

إذا لم يكن الاصطياف مقترناً بأي محرم، فما الضير فيه ؟

ولو قلتَ: فإذا لم يكن الاصطياف مقترناً بأي محرم فما الضير فيه؟

قلتُ: لا إشكال فيه من ناحية شرعية، لكن فيه منقصة أخلاقية وإضاعة لفرص كبيرة من التكامل، تلك التي ذكرناها في النقطة السابقة ضمن أمور ستة، ويضاف لها أن هذه الأموال التي تصرف لأجل التمتع والتنزه وهي أموال طائلة يمكن أن تزوج بها مؤمناً فتحصنه من الحرام، أو تكسو نساءً لا يجدْنَ حجاباً يتسترن به، أو تدعم مشروعاً خيرياً فيه إعلاءٌ لكلمة الله تعالى، أو توفر عملاً لشاب مؤمن تغنيه عن طلب ما في أيدي الناس، أو تشتري دواءً لمريض يئن من الألم ولا يجد ما يخفف به آلامه، أو تطعم أيتاماً يقضون الليل يتضورون جوعاً، فكيف يصفو لك عيش وتلتذ لك نفس وأنت ترى كل هذه الحاجات حولك، فتغلق عينك عن رؤيتها وتصم أذنك عن سماعها، والأغرب من ذلك أن يكون من بين المصطافين بعض المحسوبين على الحوزة العلمية الشريفة ويقضون الصيف كله في السفرات السياحية، ويصرف أحدهم الملايين، فتذكروا جميعاً أن صرف المال في قضاء الحاجات السابقة أولى من صرفها في الحج المستحب الذي هو من أعظم الطاعات، نطقت بذلك الأحاديث، فكيف يسوغ صرفها في

السفرات السياحية؟ نعم، قد يكون لهذه السفرات مبرراتها، ولكن ليقلل المدة بالمقدار الذي يندفع به هذا المبرر، ووفروا هذه الأموال لإغاثة الملهوفين وإعانة المحتاجين وإدخال السرور على المؤمنين؛ فإن في ذلك نعيم الآخرة وجنانها، ولا تكونوا من أهل الغفلة ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١).

(الظاهرة الثالثة): **يكثر ارتياد المسابح في الصيف، والسباحة رياضة عقلائية استحبها الشارع المقدس وفيها فوائد جمة، لكن ينبغي التنبيه إلى عدة أمور:**

١- الملابس المتعارفة التي يرتديها السباحون مخالفة للشريعة، وهي عبارة عن قطعة صغيرة يغطي بها عورته، وغالباً تكون مجسمّة للعورة، فهذه الملابس غير شرعية، فإن عورة الرجل أمام الآخرين ما بين السرة والركبة، وإذا كان الأزيد من ذلك يوجب إثارة للشهوة والفتنة فيجب ستره، فالصحيح أن يكون لباس السباح مكوناً من سروال غير مجسم يصل قريب الركبة وقميص يغطي الصدر[1].

٢- تمارس الكثير من المحرمات في المسابح، كأصوات الموسيقى والغناء، وحالات الشذوذ الجنسي كاللواط وغيره، أو الاختلاط بين الجنسين وتبادل الكلمات البذيئة، والمراهنات عند إجراء بعض المسابقات .

٣- يجب على مالك المسبح توفير شروط الصحة والأمان، فعليه أن يعقم الماء مثلاً ويبدله وينظم درجة حرارته، ويتأكد من صحة وسلامة المشاركين، وأن يوفر رجال الإنقاذ والنجاة لمساعدة الذين يتعرضون لحالات الغرق، وإذا قصر في ذلك فهو ضامن لأي ضرر يحصل على المشاركين.

---

(١) هذا مع التزام باقي الموجودين في المسبح بذلك وإلا فإنه سيقع حتماً في محاذير عديدة منها النظر إلى عورة الغير وانتشار الأمراض بسبب الماء الراكد.

٤- يحرم على النساء[١] المشاركة في المسابح العامة، حتى لو لم تكن مختلطة وكانت خاصة بالنساء؛ لجملة أمور لا حاجة إلى بيانها .

(الظاهرة الرابعة): بسبب الحر يميل الإنسان إلى تخفيف ملابسه، فتنشأ جملة من المخالفات الشرعية:

١- يلبس الرجال أثواب خفيفة حاكية لما تحتها، والملابس الداخلية قصيرة ومجسمة[٢]، أو يفتح أزرار قميصه فيظهر صدره بشكل مثير للشهوة[٣].

وكذلك النساء تلبس ملابس خفيفة حاكية سواء في الشوارع العامة أو داخل الأسر والعوائل[٤]، رغم وجود رجال أجانب عليهن؛ كأخ الزوج وزوج الأخت وابن العم وابن الخال، والمطلوب الالتزام بالحجاب الكامل أمام

---

(١) فالنساء وللأسف الشديد يترددن على المسابح كذلك وفي هذا منتهى الخسة والدناءة، أمن أجل متعة تافهة زائلة ترمين بنفسك في وادي جهنم؟ لذا فلتعلم النساء اللاتي يترددن إلى هذه الأماكن أنهن يشاركن أعداء الإسلام في تدمير المجتمع وتدمير العفة والحياء وخصمهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم القيامة.

(٢) ففي الصيف هناك من يلبس القميص أو الدشداشة الخفيفة بحيث لا يلبس تحتها إلا الشورت والذي يكون عادة مُجسِّماً للعورة فيكون جسده بالكامل واضحاً للجنس الآخر فأي كارثة أشد من هذه أليست هذه بداية ما أراده أعداؤنا لنا فتأمل كلام الماسونية: (يجب أن نخلق الجيل الذي لا يخجل من كشف عورته)!!!.

(٣) وكذلك القمصان ذات الأكمام القصيرة والكلابيات التي يلبسها بعض الشباب والتي بحركة بسيطة يظهر صدره من خلال الأكمام.

(٤) فأخو الزوج يلبس الشورت (والفانيلة) أمام زوجة أخيه وأخته وزوجة الأخ تلبس الخفيف والضيق إمام أخي الزوج وكذلك الأخوات قد يلبسنَ الستريج أو التراكسود الضيق أو الملابس التي بدون ردن أو الخفيفة أو القصيرة أو الضيقة أمام الإخوة وكل هذه الأمور فيها إشكال وتؤدي إلى مفسدة كبيرة فأثمن شيء عند المرأة هو الحياء فإذا ذهب ذهبت أنوثتها وجمالها.

الأجانب حتى داخل البيت، بل المطلوب الاحتشام وعدم لبس الملابس الخليعة أمام المحارم أيضاً[1]، فقد سمعنا عن حالات كثيرة يوسوس فيها الشيطان بين الأب وابنته والأخ وأخته، فلا بد من منع فرص الشيطان وسد المنافذ أمامه.

٢- بعض المحجبات لا تلبس الجواريب، أو تلبس تحت العباءة ثوباً لا يغطي جسمها إلى قدميها، أو تكون ذراعاها مكشوفة أو عنقها وأعلى الصدر، وهذه كلها مما يجب ستره ويحرم إظهاره.

٣- يخرج بعض الشباب بالسراويل القصيرة إلى الشارع، وفي هذا منافاة للآداب العامة وهتك لحرمة الأخلاق الاجتماعية.

وغيرها من الحالات التي تعرف قياساً إلى ما ذكرناه فلا بد من الالتفات إلى الحديث الشريف: (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة)، فالحرام حرام في الصيف أو الشتاء، في البيت أو الشارع؛ فالله الله بدينكم، لا يغلبنكم عليه هوى النفس واتباع الشيطان وبعض التقاليد المستوردة من الكفار .

(الظاهرة الخامسة): تنتشر في الصيف محلات المرطبات التي تكون أحياناً مرتعاً للشيطان، إذ فيها اختلاط غير مشروع بين الجنسين وتبادل للضحكات والكلمات المريبة والحركات المثيرة، حيث تأكل المرأة المرطبات بكل ميوعة وفتنة وسط الرجال، وقد علمت إن كثيراً من الشباب والشابات لا يرتادون هذه المحلات حباً بالمرطبات؛ وإنما استجابة لشهوة النفس الأمارة بالسوء، فلتتذكر هذه المرأة وهذا الشاب ما قلناه عما أعد الله للعاصين من العذاب، وإذا أرادوا أن يأكلوا المرطبات فليأكلوها في بيوتهم بعيداً عن الأنظار.

---

(١) قال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): (من لا حياء له لا دين له).

(الظاهرة السادسة): يقترن الصيف مع العطلة الصيفية لطلبة المدارس، والعطلة غالبا ما تعني التسكع وضياع الوقت وإمضائه بالتفاهات؛ لذلك ذكرنا توجيهاً في كلمتنا السابقة بمناسبة الامتحانات النهائية والعطلة الصيفية للطلبة بيّنا لهم فيها عدة أمور يمكن أن تجعل عطلتهم مثمرة ونافعة وهادفة، ومنها الالتحاق بالدورات السريعة للدراسة الحوزوية، وقد استجاب الكثير منهم لهذه الدعوة المخلصة جزاهم الله خير جزاء المحسنين، والذي أريد أن أضيفه هنا أنه لا ينبغي للحوزة الشريفة أن تتأسى بالدراسات الأكاديمية، فتعطل في الصيف، لأن لها معاييرها الخاصة في الدراسة والتعطيل، فعندنا شهر رمضان والمناسبات الدينية عطلة وليس عندهم كذلك، فمن تضييع الوقت أن نعطل وفق كلا المعيارين، فهنا الجمع ليس أحوط كما يقول الفقهاء، بل على خلاف الاحتياط، ولنحتسب المعاناة التي نتعرض لها ونحن ندرس في الصيف في سبيل الله تعالى ليدفع بها عنا نار جهنم، وحتى لا تنطبق علينا الآية الشريفة: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة:٨١)، والنفر لطلب العلم لا يقل أهمية عن النفر للجهاد كما نطقت الآية الأخرى[1] بصراحة: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾ (التوبة:١٢٢)، فليس هدفنا أهون من هؤلاء الكسبة والعمال الذين لم تمنعهم حمّارة القيظ من العمل، وإني لأشعر بالخجل والتقصير وأنا أمر بهم في السوق وغيره وأشاهد حماسهم في العمل في شدة الحر، فلا يسبقونا إلى الخير. نعم؛ لا شك أن الجهد الفكري أعظم وأصعب

(١) ومن الجمع بين الآيتين ﴿قَالُوا لا تَنفِرُوا في الحَرِّ..﴾ و ﴿فَلَولا نَفَرَ ...﴾ نستنتج أن النفر لطلب العلم لا يقل أهمية عن النفر إلى الجهاد.

من الجهد البدني ويحتاج إلى ظروف أفضل، مما يتطلب راحة أكبر، لكن لا على طول الصيف، بل نقتصر على فترة محدودة منه عند اشتداد الحر مثلاً[١].

الحالات السلبية التي تنتشر في المجتمع في فصل الصيف:

(الظاهرة السابعة): تنتشر في المجتمع في فصل الصيف بعض الحالات السلبية، أشير إليها باختصار لضيق الوقت:

١- استعمال مضخات سحب الماء، وهو عمل لا بأس به بمقدار رفع الضرورة والاحتياج المعقول، أما الأزيد منه وهدر الماء بلا فائدة فهو إضرار بالمسلمين، وهو محرم[٢].

٢- يستغل البعض حاجة الناس إلى الثلج فيبيعه بأسعار خيالية لا يقدر عليها أكثر الناس، وهذه الحالة ناشئة من قسوة في القلب لا يحبها الله ولا

---

(١) كان سماحة الشيخ (دام ظله) يواصل تدريسه خلال الصيف (وهاتان المحاضراتان ألقيتا في شهر تموز)، ولما كان أكثر طلابه في الدروس العالية من أساتذة الدروس في المراحل المتوسطة والأولى، فكان عمله محركاً لأغلب حلقات الدرس في الحوزة العلمية التي لم تشهد تعطيلاً ملحوظاً إلا عندما يعطي سماحته استراحة للطلبة أسبوعين أو ثلاثة عند اشتداد الحر في النصف الثاني من تموز وتصاحبها أحياناً بعض المناسبات الدينية.

(٢) وخصوصاً في المناطق الفقيرة التي لا يوجد عند الكل مضخات المياه فيحرمهم من الماء الضروري لأمور حياتهم فيكون سبباً في أذية جيرانه وحرمانهم من الماء وهذا من الأنانية المحرمة.وكل ما نريده منك هو أن تضع نفسك مكانهم فماذا سوف يكون شعورك تجاه من ظلمك.

يرحم صاحبها، فكيف يرضى شخص بأن ينتفع على حساب آلاف من الناس، وفيهم محتاجون إلى الثلج لأمر أو لآخر؟[١].

٣- تجلس النساء على أبواب الدور[٢] وفي الطرقات لتبادل الأحاديث، خصوصاً في فترة العصر إلى المغرب، وفي المناطق الشعبية، مما يوقعهن في محرمات عديدة نبهنا عليها في كتاب (فقه العائلة) فراجعوه.

٤- تقوم بعض النسوة برش الماء على باب الدار لوقت طويل، مما يعرضها لنظر الأجنبي، وتنكشف حتماً بعض أجزاء جسدها كالمعصم ومقدم شعر الرأس وبعض الساقين، فما الضرورة إلى ذلك؟[٣].

---

(١) مما يؤدي إلى عدم شرب الماء البارد لكثير من العوائل الفقيرة خلال فصل الصيف، فالله الله بإخوانكم وكم سيبارك الله بالرزق القليل مع مراعاة الناس وحب الخير لهم ولا عليك بغيرك الذي لا يرجو إلا الدنيا الحقيرة فانه لا يحظى منها غير ما يرزقه الله.

(٢) أي دين هذا الذي يبيح للمرأة الجلوس في الشارع وقد جعل الإسلام أفضل صلاتها ما كان في بيتها بل في مخدعها؟ إن هذا العمل مخالف لآدابنا وأخلاقنا التي علمها لنا أهل البيت (عليهم السلام). ولتعلم المرأة الجالسة في الشارع أن الناس لا تحملها محمل الخير، وأن هناك عدداً من المحاذير في هذا الجلوس منها عدم الاحتشام، والتهاون بالحجاب، وإحراج المارّة وإدخال الأذى عليهم، والخوض في الغيبة واللغو والتجسس وغيرها.

أما الرجال فجلوسهم في الشارع أيضاً منهي عنه لما فيه من ضرر عام على المجتمع وإني لأعجب كيف يجد هؤلاء أوقات فراغ وقد ترك لنا أهل البيت (عليهم السلام) موروثاً كبيراً من الأعمال التي تستوعب كل الوقت فلماذا تستبدلون ما هو خير بما هو شر لكم؟.

(٣) واقل ما تفعله المرأة هو إخراج ذراعها المكشوف عادة من فتحة الباب وهذا حرام فضلاً عن غيره من الأمور التي يندى لها الجبين..

٥- استشراف بعض أهل النظرات الخائنة إلى أعراض الناس، خصوصاً في الصباح الباكر، حيث إن العوائل لا زالت نائمة على أسطح المنازل، وفي هذا خيانة عظمى لله تعالى حيث قال: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:١٩)، وفي الحديث: (إن العين التي تمتلئ من النظر إلى الحرام يملأها الله ناراً يوم القيامة)[١].

٦- تنتشر هواية تربية الطيور واللعب بها وتحليقها في الجو، وفي هذه الهواية محرمات عديدة نبهنا إليها في استفتاء مستقل[٢].

٧- بسبب الضيق النفسي والتبرم من الحرّ تحصل حالات الغضب السريع، سواءً داخل البيت أو في السوق أو بين سائق السيارة والركاب[٣]، مما

---

(١) إن المبيت فوق سطح الدار إذا كانت جدران السطح غير ساترة يؤدي إلى التسلط على بيوت الجيران وتسلط الجيران على بيتك وقد ورد نهي أكيد على ذلك وفي بعض الروايات أن الذي يفعل ذلك يخرج من ربقة الإسلام، فاتقوا الله واحذروه.

(٢) تجده في قسم الاستفتاءات من هذا الكتاب.

(٣) الظواهر التي تحدث في السيارات:

١- الجلوس في الجهة التي لا تكون مواجهة للشمس: وكذلك الجلوس في مناطق انتظار السيارات وترك النساء والأطفال في الشمس وهذا مخالف لقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) فكم هو جميل لو كان الأمر بالعكس أي أن الجهة المواجهة للشمس مشغولة لفتح المجال لإخواننا للجلوس في الجهة الأخرى وخصوصاً عندما يكون هناك نساء أو رجال كبار في السن وكم سيعود ذلك بالعزة والفخر للدين والمذهب فادعوا شبابنا إلى تطبيق هذه الأمور لتكون محبة الغير ونبذ الأنانية ملكات عندهم وليصبروا على حر الدنيا ليفوزوا بظل الآخرة.

٢- التدخين: مما يؤدي إلى إضرار غيرهم وخصوصاً أن هذه المواسم تكثر فيها أمراض حساسية الأنف والجيوب الأنفية ورسولنا الكريم (صلى الله عليه وآله==

يؤدي إلى المخاصمات والاشتباكات بالأيدي، وهذا عمل محرم في الشريعة، والغضب خصلة مذمومة وهي شعبة من النار، وإن إبليس ليتسلط على الإنسان في حالة الغضب، فلماذا تعطوه هذه الفرصة؟.

٨- كثير من الناس مبتلى بأمراض الحساسية في الأنف والصدر، وتهيج في فصل الصيف؛ لذا يجب على الناس تجنب أي شيء يؤذي المبتلين بالحساسية خصوصا التدخين.

==وسلم) يقول: (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام)، فأحدنا عندما يتكلم في الأخلاق لا أحد يسبقه ولكن عندما يصل الأمر إلى التطبيق وإلى التدخين يترك كل ذلك وراء ظهره فلماذا هذا التناقض ولماذا هذا الضعف أمام النفس؟.

٣- ج. سرعة الغضب: من قبل السائق اتجاه الركاب أو باقي السائقين من جهة ومن قبل الركاب اتجاه السائق من جهة أخرى بسبب التأخير الذي يحدث وكل هذا ناشئ من قلة الصبر وعدم تحمل الحر فكيف بهم بحر الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها ألا يعلمون أن الغضب من الكبائر وأن إهانة الآخرين وإحراجهم من الكبائر، أفبهذا الضعف وعدم الصبر سوف نتحمل الأعباء مع الإمام (عجل الله فرجه) أم بهذه الأخلاق سوف ننصر الإمام (عج).؟

وأخيراً وبعد كشف هذه السلبيات التي لا تُبقي عذراً مع أحد أدعو الإخوة المؤمنين أن يتكاتفوا ويكونوا يدا واحدة ضد هذه الظواهر التي لأعدائنا اليد الطولى في إفشائها في مجتمعنا الحبيب ولا يضعفوا أمام هذه المغريات الرخيصة وغيرها من الأمور التي أمضت بقلب الإمام الحجة (عجل الله فرجه) فلا نتصور أننا بهذه الأعمال المشينة نصرنا الإمام (عليه السلام) على أعدائه فالإمام يقول: (كونوا لنا دعاة صامتين) فهل نحن دعاة للأمام بأفعالنا هذه وما أعمق قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (من لا حياء له لا دين له)، وبادروا معاشر الشباب إلى ترك هذه الأمور التي لا يرجوها الإمام من شيعته المنتظرين له وانظروا بدقة إلى عاقبة أفعالكم ومردودها على الدين والإسلام فهل انتم منتهون؟.. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله الطاهرين.

أسأل الله تعالى أن يجعل حظنا من الحرِّ حرَّ الصيف فقط، ويقينا جهنم وسمومها وزفيرها، ويجعل أوقاتنا كلها خالصة له حتى يبلغ بنا غاية رضاه؛ إنه ولي النعم.

وأشكر بعض الأخوة الذين تعاونوا معي في إلفات النظر إلى عدد من الحالات السلبية المذكورة تطبيقاً للآية الشريفة: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:٣)، والحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين.

فرحة الزهراء (عليها السلام)[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتاد بعض الشيعة (أيدهم الله بلطفه) أن يحتفلوا يوم التاسع من ربيع الأول من كل عام بما يسمّونه (فرحة الزهراء) أو عيد الزهراء (عليها السلام) ويصفونه بأنه ((عيد عظيم)) وأنه ((يوم زوال الغموم والأحزان وهو يوم شريف جداً)) -بحسب تعبير صاحب كتاب (مفاتيح الجنان)- **من دون أن يعرفوا منشأً واضحاً لهذه المناسبة.**

وقد تصدّى البعض لإثبات أصل لها لكن محاولاتهم غير مقنعة ولا يساعد عليها الدليل، فذكروا لأصل هذه المناسبة عدة وجوه، منها وجهان ذكرهما صاحب كتاب مفاتيح الجنان[٢]:

(الأول) إن التاسع من ربيع الأول يمثل أول يوم من إمامة الإمام المهدي الموعود (عليه السلام) باعتبار وفاة أبيه العسكري (عليه السلام) في الثامن من ربيع الأول و لما كان الإمام المنتظر (عليه السلام) هو الذي على يديه يسود العدل وينتصف المظلوم من الظالم فيكون يوماً مفرحاً للزهراء (عليها السلام) حيث يعود إليها حقها وحق آلها[٣].

و هذا الوجه غير صالح لتفسير المناسبة لعدة أمور:-

---

(١) خاطرة سنحت لسماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) عندما كان يدرّس حشداً كبيراً من فضلاء الحوزة كتاب (كفاية الأصول) في مسجد الرأس الشريف المجاور للحضرة العلوية المقدسة فارتجلها بالمناسبة يوم ٩/ربيع الأول/١٤٢٢ المصادف ٢٠٠١/٦/١.

(٢) مفاتيح الجنان، أعمال شهر ربيع الأول.

(٣) واختار هذا الوجه أيضاً سيدنا الأستاذ الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) واعتبره الوجه ((الأفضل والأحسن متشرعياً وديناً)) ونقله أيضاً عن بعض أساتذته ويقصد به عادةً الشهيد الصدر الأول (قدس سره). (دستور الصدر: ١٣٦، خطبة الجمعة رقم (١٣)).

١- إن الإمام اللاحق تبدأ إمامته الفعلية و يقوم بالأمر بمجرد وفاة السابق لأن الأرض لا تخلو من حجة ولا يُنتظر بهذا المنصب الإلهي خالياً حتى تتم مراسيم (التنصيب).

٢- إن قيام المهدي (عليه السلام) بالأمر هو فرحة لكل مظلوم ومستضعف ولكل محب للخير والعدل والسلام ولكل من يرنو لإعلاء كلمة الحق وسيادة التوحيد الخالص ولا تختص الفرحة بالزهراء (عليها السلام).

٣- مع مخالفته لظاهر العنوان من كون الفرحة حالة عاشتها الزهراء (عليها السلام) فعلاً.

(الثاني) إنه يوم طُعن فيه أحد الذين ظلموا الزهراء (عليها السلام) واعتدوا عليها وماتت وهي غاضبة عليه، ففي مثل هذا اليوم بُقرت بطنه لذا سمّاه البعض[١] (عيد البَقْر).

وهذا الوجه وإن كان هو الظاهر من أفعال المحتفلين إلا أنه أيضاً غير صحيح لعدة أمور:-

١-إن هذه الحادثة وقعت في أواخر ذي الحجة كما تشهد به التواريخ[٢] وليس في ربيع الأول.

٢- إنها وقعت بعد وفاة الزهراء (عليها السلام) والمفروض أنها فرحة عاشتها الزهراء (عليها السلام) في حياتها وليست تخيلية.

٣- إن هذا الفهم غير لائق بأدب أهل البيت (عليهم السلام) البعيدين عن الشماتة والتشفي والأنانية لمجرد التشفي والانتقام، فإنهم لم يفرحوا ولم يحزنوا لأنفسهم وإنما كانت كل أعمالهم ومشاعرهم وأحاسيسهم لله وحده لا شريك له، وإذا فرحوا لموت أو مقتل أحد -كعبيد الله بن زياد قاتل الحسين (عليه السلام)- فلأن فيه إجراءً لسنة الله تعالى في الظالمين وموعظة للناس، ويبدو أن هذا الوجه من صنع أهل التعصب والعاطفة المذهبية.

---

(١) ذكره في أعمال شهر ربيع الأول، وذكر ذلك أيضاً في كتابه (وقائع الأيام).

(٢) راجع كتاب (وقائع الأيام: ١٤٣).

(الثالث) إن في هذا اليوم وصل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هجرته إلى مسجد قبا في ضواحي المدينة وبذلك فرحت الزهراء (عليها السلام) بسلامة أبيها من طلب مشركي قريش.

أقول: صحيح إن أرباب السير ذكروا أن دخول النبي (صلى الله عليه وآله) المدينة كان في هذا التاريخ[1] إلا أن هذا الوجه لا يرتضيه المحتفلون بعيد الزهراء لأن مرادهم معنى آخر، ثم إن هذا الحدث لو كان عيداً يُحتفل به لاحتفلت به الزهراء (عليها السلام) نفسها في حياتها وقد تكررت ذكراه عشر مرات عشرة مرة إلى حين وفاتها (عليها السلام).

ولو سرنا مع العنوان لنستنبط وجهاً مقبولاً للمناسبة بغضّ النظر عن وجهة نظرنا فإننا نقول:

إن الظاهر من العنوان أنها فرحة فعلية عاشتها الصديقة الطاهرة (عليها السلام) في حياتها، ويظهر أيضاً أنها حصلت مرة واحدة ولم تتكرر لأن عنوانها (فرحة) وهو مصدر مرّة، ولأنها لو تكررت لذكرها التاريخ كذكرى تستعاد في حياتها (عليها السلام).

وبموجب هذه المقدمات تكون الفرحة قد حصلت في السنة الأخيرة من حياتها حيث توفيت في السنة الحادية عشرة بعد أبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) بأشهر.

وقد سجّل التاريخ فرحة للزهراء (عليها السلام) تنطبق عليها هذه الأوصاف فقد روي عن إحدى زوجات الرسول أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه حين دنت منه الوفاة وأثقله المرض همس في أذن ابنته الزهراء (عليها السلام) فبكت ثم همس أخرى فاستبشرت[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٩٨/٢.

(٢) رواها البخاري والترمذي في صحيحيهما عن أم المؤمنين عائشة، راجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ١٨٩/٣.

فهذه فرحة للزهراء (عليها السلام) سجلها التاريخ في آخر سنة من حياتها الشريفة لكن المشهور أن وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) في الثامن والعشرين من صفر فتكون هذه الحادثة قبلها لا بعدها في التاسع من ربيع الأول!.

لكن هذا الإشكال يمكن ردّه على القول الآخر في تحديد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد التزم جماعة من العلماء منهم الكليني في الكافي[1] بأن وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) في الثاني عشر من ربيع الأول وعليه جرى أبناء العامة ويصادف يوم الاثنين بعد التأريخ المشهور لدى الإمامية في ٢٨/صفر بأسبوعين بالضبط، فمن هذه الناحية -أي كون الوفاة يوم الاثنين- لا يأتي إشكال على هذا القول، فيكون يوم التاسع من شهر الوفاة هو الجمعة.

وبذلك نصل إلى نتيجة مقبولة جداً، لأن حزن الزهراء (عليها السلام) وفرحها سيكون منطقياً لأن الخسارة برحيل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليست بغياب شخصه فقط وإنما لوجود المؤامرة على آله وحملة رسالته بعد التي حصلت يوم الخميس والتي سمّاها عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: (رزية يوم الخميس) فيكون هذا التطمين من أبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الجمعة ضرورياً بعد أن أحست بالقلق مما حصل يوم الخميس.

وإننا هنا لا نريد أن نغير التأريخ المشهور لوفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا ندعم القول الآخر، وإنما نقول من المستحسن أن نكثر المناسبات الخاصة برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنحتفل في التأريخين (الثامن والعشرين من صفر والثاني عشر من ربيع الأول) خصوصاً وأن ذكرياته (صلى الله عليه وآله وسلم) قليلة في السنة لا تناسب عظيم أثره وعميم بركاته التي ننعم جميعاً بخيراته في الدنيا والآخرة، كما أننا نحتفل بوفاة الصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) في ثلاثة تواريخ محتملة لوفاتها (صلوات الله

---

(١) الكافي: كتاب الحجة، باب ١٠٧، مولد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووفاته.

عليها)، وتكثير هذه المناسبات أمر مستحسن شرعاً لما فيه من نتائج إيجابية على صعيد الدين والفرد والمجتمع.

أقول: هذا بحسب التسلسل الفكري الذي يقتضيه العنوان.

والذي أعتقده أن هذا العيد وهذه الفرحة لا أصل لها والاحتفال به بدعة خصوصاً مع ما يصاحبه أحياناً من مخالفات لآداب أهل البيت (عليهم السلام) وتعاليمهم، ووجه تأسيسه أن الشيعة يعيشون موسماً حزيناً طيلة شهري محرم وصفر كما هو معروف ولذلك فقد حلا للبعض أن يصطنع عيداً وفرحة يعوّضون به عن فترة الحزن، ولم يكن ذلك مستساغاً مع إطلالة ربيع الأول لقرب ذكرى وفاة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) في الثامن منه، فدفعوها إلى التاسع وليلبسوا عليها ثوب المشروعية بافتراض أنه يوم تنصيب الإمام الحجة المنتظر (عجل الله فرجه)، وربما انضمّ إليه منشأ آخر في سنةٍ ما حيث صادف يوم النوروز بالتأريخ الميلادي (وهو ٢١/آذار) لأن السنين تدور وقد يتطابق اليومان ثم لما انفصلا استمر الاحتفال به كعيد مستقل للمعنى الذي ذكرناه، والذي يؤيد هذا المعنى تشابه بعض فعاليات الاحتفال بالعيدين[١].

مضافاً إلى ظهور أول إشارة إليها في التأريخ في العصر البويهي حيث نقلت عن كتاب (مسارّ الشيعة) للشيخ المفيد (قدس سره)[٢]. وقد شهد هذا العصر وعصر السلاجقة الذي تلاه صراعاً قومياً بين الفرس والعرب، وطائفياً

---

(١) في عام ٣٨٧ هـ تطابق يوم النوروز مع التاسع من ربيع الأول (لجنة التحقيق).

(٢) نسبه إليه صاحب كتاب مفاتيح الجنان وذكره في كتابه (وقائع الأيام: ٢٢٢) ونسب إلى الشيخ المفيد قوله: ((وقد اتخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله هذا اليوم عيداً، وأمر الناس بأن يتخذوه عيداً أيضاً)).

أقول: لا دليل على هذا الكلام، علماً بأنه ذكر في هامش كتاب (وقائع الأيام) أن كتاب (مسارّ الشيعة) بطبعته القديمة والحديثة خالٍ من هذا الكلام ولعله حُذف منه.

بين السنة والشيعة، وهو في جذوره لا هذا ولا ذاك بل سياسي مصلحي للاستيلاء على السلطة.

ونتيجة البحث: أن هذه الفرحة وهذا العيد لا أصل له وليس له وجود في عصر الأئمة المعصومين (عليهم السلام) وعلمائنا الأقدمين وأول ظهور للمناسبة هو في العصر البويهي إذا صحّت النسبة إلى كتاب (مسارّ الشيعة) للشيخ المفيد (قدس سره) ومن غير المقبول جعل فرحة للزهراء (عليها السلام) في مثل هذه الأيام التي شهدت الهجوم على دارها الشريف وجريان المظالم عليها وعلى أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وفاة أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وفي مثل هذه الأيام كان وصول سبايا آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة المنورة بعد زيارة الأجساد الطاهرة في كربلاء يوم الأربعين.

وهذا الموقف لا ينافي إقامة بعض المناسبات المفرحة بعد انتهاء شهر صفر كالتزويج وذكرى تنصيب الإمام الحجة (عجل الله فرجه) فإنها من سنن الله الحسنة.

انتصاراً لأمِّ البنين

هل كان للخنساء أربعة بنين استشهدوا في معركة القادسية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة لا بد منها:

كتبت هذا التحقيق قبل اثنتي عشرة سنة يوم كان كل زادي من العلم هو المطالعات في الكتب المختلفة إذ لم يتم انتمائي حينئذ إلى الحوزة العلمية الشريفة فعلاً، وقد ارتأيت أن أبقيه على حاله لأمرين:

١- لكي يبقى تذكاراً لتلك الفترة من حياتي، وقد جُبِلَ الإنسان على حب ذكرياته التعلق بها والاحتفاظ بكل ما يمت إلى ماضيه بصلة .

٢- إن إعادة النظر فيه وإصلاح ما ينبغي إصلاحه يتطلب جهداً أنا محتاج إلى صرفه في أولوياتي الأخرى.

وأعتقد أن مجموع هذين الأمرين مبرر كافٍ لإصدار البحث على حاله.

وهذا لا يعني ضعفاً في مستواه، فأنا مقتنع الآن بأنه تحقيق نافع يكشف الستار عن كذب واحدة من الروايات التأريخية المشهورة ليفتح الباب واسعاً

---

(١) نشر بتأريخ: ١١ صفر ١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩/٥/٢٧ م.

وتحقيق سماحة الشيخ (دام ظله الشريف) في هذه القضية التأريخية كتب عام ١٩٨٧ ولم يُنشر في حينه، وقد اطلع عليه يومئذٍ عدد من العلماء وأثنوا عليه، كالسيد الشهيد الصدر الثاني والعلامة السيد محيي الدين الغريفي (قدس الله روحيهما).

أمام المحققين لإعادة النظر في كثير من القضايا الموروثة وإن اكتسبت رسوخاً وقدسية لينتصف المظلوم ويعود الحق إلى نصابه.

وليست هذه المحاولة بأقل عمقاً من المستوى الذي كُتبت به أمثالها (كمائة وخمسون صحابي مختلق) ونظائره وفيه جهدٌ لا يستهان به.

نسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدي علمائنا ومفكرينا ومثقفينا ويهديهم إلى ما فيه نفع الأمة وصلاحها وتشخيص أدوائها ودوائها، إنه نعم الموفق ونعم المستعان.

المقدمة:

امتدت يد التحريف إلى مختلف العلوم الإسلامية تعصباً لمذهب أو حقداً على آخر وكيداً له أو ملقاً لذي مال أو جاه ونحوها، وكان التاريخ الإسلامي أحد المجالات الخصبة لهؤلاء المحرفين، ورغم أن الحقائق التاريخية لابد أن تظهر لأن التلفيق والتزوير لا يصمد أمام التحقيق والتمحيص إلا إن بعضاً من هذا الكذب ظل متخفياً بلباس الشهرة وكثرة التداول و(رب مشهور لا أصل له) إلى أن تجند الأمانة العلمية والحقائق التاريخية من يميز الغثّ من السمين، وعندئذ يذهب الزبد جفاء أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

ولا أدري كيف سرى لي الشك والقدح في صحة الرواية عنوان البحث، إلا أني وفي إحدى لحظات التأمل ألهمت أن الرواية موضوعة وأن لا مقيل لها من الصحة، فطفقت أبحث وأنقّب في كتب التاريخ والرجال والحديث عن متن الرواية وسندها ... فماذا وجدت؟! وجدت رجال الرواية بين كذّاب ووضّاع ومنكر الحديث ومجهول، وفي أحسن الأحوال تساوت فيه أحاديث الجرح والتعديل.

وأما متن الرواية فمضطرب، ويتعارض مع نفسه ومع حقائق أخرى تتصل به. ومالي استعجل ذكر النتيجة، وبين يدي القارئ تمام ما توصلت إليه من بحث وتنقيب ليتولى الحكم بنفسه.

وقد يتفق القارئ معي على صحة ما توصلت إليه، لكنه لا يقبل التصديق بأن الرواية موضوعة لشهرتها ولعدم سماع ما يقدح فيها، لكن ما العمل والخطب جليل والحقيقة العلمية يجب أن نقبلها وإن لم تجد في أنفسنا هوى وقبول، ثم ألم تسمع أو تقرأ ما احتوى عليه التاريخ من خلط الحابل بالنابل وتبديل الكذب صدقاً والصدق كذباً؟ ويكفي أن تعلم أن من بين صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مائة وخمسين صحابياً مختلقاً[١] بكل تفاصيل سيرتهم، وهذا الرقم يمثل ما توصل إليه مؤلف هذا الكتاب فقط، وإن مجموع بعض الروايات الموضوعة والمقلوبة والتي اتفق على كذبها بلغ أكثر من أربعمائة ألف حديث[٢]، وقد عدّ العلامة الأميني (قدس سره) سبعمائة راوٍ ومحدث من المتفق على افترائهم[٣]، وهذه نماذج لما احتوت هذه الفترة من التأريخ الإسلامي من مفتريات وأباطيل نسجها الوضاعون والكذابون تحت أغراض شتى .

والرواية عنوان البحث إن صحت تمثل جانباً مشرقاً من حياة المسلمين وموقفاً بطولياً مليئاً بالإيمان والتضحية في سبيل المبادئ الحقة هو ليس الوحيد... ولئن تطرق الشك إلى صحة وقوعه، فله نظير متفق عليه، ذلك هو إيثار أم البنين بنت حزام[٤] الكلابية زوج أمير المؤمنين (عليه السلام) وتفانيها في سبيل المبدأ

---

(١) عنوان كتاب للسيد مرتضى العسكري.

(٢) الغدير للعلامة الأميني مج٥ ص٢٩٠ .

(٣) الغدير مج٥ ص٢٠٩-٢٧٥ .

(٤) أو حرام على خلاف وتمام التحقيق في كتابنا المخطوط عن أم البنين .

حين استشهد لها أربعة بنين أحدهم أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) بين يدي أخيهم الحسين (عليه السلام) في معركة الطف يوم عاشوراء، لكن التأريخ ولأسباب غير مجهولة تناسى هذا الموقف العظيم وصاغ من خيالات الوضاعين والكذابين ما يشابهه حنقاً وغيظاً لئلا ينسب الفضل إلى أهله ولكن يريدون أن يطفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره محرفو الكلم عن مواضعه.

وإليكم نص الرواية مع مناقشة سندها ومتنها وليعط الحاكم النَصَف من نفسه والله من ورائهم شهيد.

نص الرواية:

في الاستيعاب لابن عبد البر[1] في ترجمة الخنساء، وفي الإصابة لابن حجر[2] جمعاً بين النصين:

(ذكر الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن المخزومي وهو المعروف بابن زبالة أحد المتروكين عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه عن أبي وجزة عن أبيه قال: حضرت الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل

---

(١) المطبوع هامش الإصابة لابن حجر مج٤ ص٢٩٥ .

(٢) مج٤ ص٢٨٧ كتاب النساء، حرف الخاء من القسم الأول .

عمران:٢٠٠)، فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت ناراً على أرواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها عند احتدام وطيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة، فخرجوا قابلين لنصحها عازمين على قولها فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وانشأ أولهم يقول:

يا أخوتا إن العجوز الناصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة ... فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة ... من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة ... وانتم بين حياة صالحة

أو ميتة تورث غُنما رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل (رحمه الله)، ثم حمل الثاني وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلدْ ... والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد ... نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد ... إما لفوزٍ بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عزّ الأبد ... في جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصي العجوز حرفا ... قد أمرتنا حرَباً وعطفا
نصحاً وبراً صادقاً ولطفا ... فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفّوا آل كسرى لفّا ... أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إنا نرى التقصير عنكم ضعفا ... والقتل فيكم نجدة وزلفا

فقاتل حتى أستشهد، ثم حمل الرابع وهو يقول:

لـــست لخنـــساءَ ولا للأخـــرمِ ولا لعمـــرٍو ذي الـــسناء الأقـــدم
إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم مـاضٍ علـى الهـول خـضمّ خـضرم
إما لفـــوز عـــاجل ومغنـــم أو لوفـــاة في السـبيل الأكـرم

فقاتل حتى قتل رحمة الله عليه وعلى أخوته، فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

مناقشة السند:

رجال السند ستة وهم:

١- الزبير بن بكار .
٢- محمد بن الحسن المخزومي المعروف بابن زبالة .
٣- عبد الرحمن بن عبد الله العمري .
٤- أبو عبد الرحمن عبد الله العمري .
٥- أبو وجزة السعدي الشاعر .
٦- أبو أبي وجزة .

١- الزبير بن بكار:

في ميزان الاعتدال للذهبي[1]: الإمام صاحب النسب قاضي مكة من أوعية العلم، لا يلتفت إلى قول أحمد بن علي السليماني حيث ذكره في عداد من يضع الحديث.

وقال مرة: منكر الحديث .

---

(١) مج ٢ ص٦٦ عدد، ٢٨٣ .

وفي الجرح والتعديل للرازي[٢]: الزبير بن بكار: رأيته ولم أكتب عنه. وفي تهذيب التهذيب لابن حجر[٣]: قال ابن أبي حاتم كتب عنه أبي بمكة ورأيته ولم أكتب عنه، وقال أحمد بن علي السليماني في كتاب الضعفاء له كان منكر الحديث وهذا جرح مردود، ولعله استنكر إكثاره عن الضعفاء مثل محمد بن الحسن بن زبالة المخزومي؛ فإن في كتاب النسب عن هؤلاء أشياء كثيرة منكرة .

٢- محمد بن الحسن المخزومي:

في تهذيب التهذيب لابن حجر[١]: محمد بن الحسن بن زبالة وهو أبو الحسن المخزومي المدني، عن ابن معين أنه كذاب خبيث لم يكن بثقة ولا مأمون يسرق، قال أحمد بن صالح المصري كتبت عنه مائة ألف حديث ثم تبين لي أنه كان يضع الحديث فتركت حديثه، وقال الأجري عن أبي داود: كذابا المدينة محمد بن الحسن بن زبالة ووهب أبو البختري، وقال الدارقطني: متروك.

وقال ابن حبان: كان يروي عن الثقات ما لم يسمع منهم، وقال الخليلي: روى عن مالك مناكير وهو ضعيف، وفي الجرح والتعديل للرازي[٢]: محمد بن الحسن المخزومي ذاهب الحديث منكر الحديث، ومرَّ بك في متن الرواية قول ابن حجر عند نقله لها عن المخزومي بأنه أحد المتروكين، وفي الغدير للأميني[٣]: كذاب متروك واهي الحديث نسب إلى وضع الحديث، وفيه أيضاً[٤]: ابن زبالة:

---

(٢) مج٣ ص٥٨٥ .

(٣) ج٢ ص٣١٢ .

(١) ج٩ ص١١٥ .

(٢) ج٧ ص٢٢٨ .

(٣) ج٥ ص٢٥٦ عن مجمع الزوائد للهيثمي ٣٠٦/١ والإلإلىء المصنوعة للسيوطي ٧١/٢ .

(٤) ج٥ ص٢٧٣ عن تاريخ الخطيب البغدادي ٢٠٠/٤ .

قال الحافظ أحمد بن صالح كتبت عنه مئة ألف حديث ثم تبين لي انه كان يضع الحديث فتركت حديثه.

٣- عبد الرحمن بن عبد الله:

عثرت على أسماء كثيرة تحت هذا العنوان، فاتبعت عدة نقاط لمعرفة الراوي المقصود، وهي:

١- تتبع أسماء من يروى عنهم ومن يروون عنه.

٢- ملاحظة الزمن وتأريخ حياته وعدد الوسائط.

٣- أن يكون أبو الراوي راوياً، حيث ورد في السند أنه ينقلها عن أبيه.

فانطبقت هذه المواصفات على عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن حفص العمري المدني.

في ميزان الاعتدال للذهبي[١]: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن حفص العمري المدني هالك، قال يحي بن معين سمعت منه مجلساً وهو ضعيف، وقال أحمد: ليس يسوى حديثه شيئاً، سمعت منه ثم تركناه، أحاديثه مناكير وكان كذاباً فمزقت حديثه، وقال النسائي: متروك، قال ابن عدي: عامة ما يرويه مناكير أما متناً وأما إسناداً، وفي الجرح والتعديل للرازي[٢]: عبد الرحمن بن عبد الله العمري متروك الحديث كان يكذب.

وفي تهذيب التهذيب[٣]: عبد الرحمن بن عبد الله العمري، قال أبو طالب عن أحمد: ليس بشيء، وقد سمعت منه ومزقته وكان يقلب حديث نافع عن ابن عمر، وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: أحاديثه مناكير كان كذاباً، وقال الجوزجاني: القاسم وعبد الرحمن العمريان منكراً الحديث جداً.

---

(١) مج ٢ ص٥٧١ ترجمة ٤٩٠٠ .

(٢) ج٥ ص٢٥٣ .

(٣) ج٦ ص٢١٣ .

وفي الغدير للأميني[١]: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العدوي كان كذاباً يقلب الاحاديث، متروك الحديث حديثه أحاديث مناكير، كان كذاباً متروكاً لا يحتج به.

٤- عبد الله بن عمر بن حفص العمري المدني:

في ميزان الاعتدال للذهبي[٢]: عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب العمري المدني أخو عبيد الله، صدوق في حفظه شيء، روى عن نافع وجماعة، وقال ابن المديني: عبد الله ضعيف، وقال ابن حبان: كان ممن غلب عليه الصلاح والعبادة حتى غفل عن حفظ الأخبار وجودة الحفظ للآثار فلما فحش خطأه استحق الترك، مات سنة ١٣٧ هـ.

وفي تهذيب التهذيب لابن حجر[٣]: قال ابن حبان كان ممن غلب عليه الصلاح حتى غفل عن الضبط فأستحق الترك، وقال الترمذي في العلل الكبير عن البخاري: ذاهب لا أروي عنه شيئاً، وقال البخاري في التاريخ: كان يحيى بن سعيد يضعفه، وقال أبو أحمد الحاكم ليس بالقوي عندهم وقال المروذي ذكره فلم يرضه.

٥- أبو وجزة:

في تهذيب التهذيب[٤]: أبو وجزة اسمه يزيد بن عبيد المدني أبو وجزة السعدي الشاعر، وقال[١]: مات سنة ١٣٠ هـ وهو ثقة قليل الحديث شاعراً عالماً،

---

(١) ج٥ ص٢٣٦ عن تاريخ الخطيب البغدادي ٢٣١/١٠ ونصب الراية للزيلعي الحنفي ٦٠/١ .

(٢) مج٢ ص٤٦٥ ترجمة ٤٤٧٢ .

(٣) ج٥ ص٣٢٦ .

(٤) قسم الكنى ج١٢ ص٢٧١ .

وفي الجرح والتعديل للرازي[٢]: أبو وجزة السعدي كان شاعراً لم يذكر أباه في من روى عنه.

٦- أبو أبي وجزة:

يفترض أن اسمه عبيد المدني السعدي – من اسم ابنه أبي وجزة – ولا يوجد أحد بهذا الاسم في معاجم الرجال، نعم هناك ذكر لجد أبي وجزة ويكنى بأبي وجزة أيضاً، قال ابن حجر[٣]: له إدراك، وقال ابن عساكر: أظنه جد أبي وجزة الشاعر.

استنتاج:

بعد سير أحوال رجال السند يتضح لنا أن أكثرهم كذاب وضاع متروك الحديث أو مجهول، وفي أحسن الأحوال تساوت فيه أقوال الجرح والتعديل، وإن وجود أحدهم كابن زبالة المخزومي يكفي لطرح الرواية وإهمالها.

والآن هلموا معي لمناقشة المتن وأمور تتعلق به تحت عناوين منفصلة، والله المسدد:

مناقشة المتن:

١- لم يكن للخنساء أربعة بنين من زوج واحد كما تنص الرواية؛ فقد ولد لها من زوجها الأول وهو رواحة بن عبد العزى السلمي ولدها الأكبر عبد

---

(١) ج١١ ص٣٤٩ .

(٢) ج٩ ص٢٧٩ وفي ميزان الاعتدال للذهبي (ج٤ ص٤٣٤) أبو وجزة السعدي مقل سكتوا عن توثيقه وتضعيفه روى عن عمر بن أبي سلمة والظاهر انه لم يسمع منه فقد اخرج النسائي له عن رجل عن عمر (وهذا هو التدليس) .

(٣) الإصابة مج٤ ص٢١٨ قسم الكنى .

الله وهو أبو شجرة، ولها من زوجها الثاني مرداس بن أبي عامر السلمي ثلاثة بنين وبنت واحدة، وقد اختلف في أسمائهم، فقيل: معاوية ويزيد وعمراً وعمرة[١]، وقيل: سراقة وحزن وعمرو[٢]، أما العباس بن مرداس فهو ابن زوجها وعليه أكثر المؤرخين وأهل التراجم الأولين، حتى إن ابن قتيبة جعل العباس متقدماً زمناً على الخنساء[٣]، وللعباس أخ من غير الخنساء اسمه شدّاد له قصة مع أخته عمرة[٤]، أما من قال أنه ابن الخنساء فلجهله بأن الخنساء تزوجت اثنين أحدهما مرداس الذي كان قد تزوج قبل الخنساء، وكانت عمرة أخت العباس لأبيه تحب أخاها، كما كانت أمها الخنساء تحب أخاها لأبيها صخراً، ولما مات العباس رثته أخته عمرة بأبيات منها:

لتبك ابن مرداسٍ على ما عراهمُ ... عشيرته إذ حمّ أمس زوالُـــها
لدى الخصم إذ عند الأمير كفاهمُ ... فكان إليها فصلها وحلالُـــها
ومعــضلة للحاملـــين كفـــيتها ... إذا أنهكت هوج الرياح طلالُها[٥]

٢- إن أبناء الخنساء توفوا أو قتلوا في تواريخ مختلفة وفي غير معركة القادسية التي حدثت سنة ١٤هـ .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٤٣/١.
(٢) الفرائد الغوالي للجواهري: مج٧ ص١٧.
(٣) الشعر والشعراء ٣٠٠/١، ٣٤٣/١.
(٤) الخنساء شاعرة بني سليم للدكتور محمد جابر عبد العال الجبني ص٧٨، الفرائد الغوالي ج٣ ص١٤٠.
(٥) الخنساء شاعرة بني سليم، للجبني، ص ٩٧.

فالعباس – على فرض أنه ابن الخنساء – توفي سنة ١٨ في بادية البصرة[١]، ويزيد قتل أخذاً بثأر قيس بن الأسلت، ولشقيقته عمرة شعر في رثائه منه قولها:

أجدٌ ابن أميَ أن لا يؤوبا؟ وكان ابن أمي جليداً نجيبا
تقيّاً نقيّاً رحيب المقامِ كميّاً صليباً خطيبا[٢]
حليماً أريباً إذا ما بدا سديد المقالة صلباً دريبا

٣- إن أبا شجرة وهو ابن الخنساء من زوجها الأول كان ممن ارتدّ عن الإسلام بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، يقول الطبري في تأريخه[٣]: وقد كان لحق فيمن لحق من بني سليم بأهل الردة، أبو شجرة بن عبد العزى وهو ابن الخنساء. وذكر له أبياتاً من الشعر هي:

صحا القلب عن ميٍّ هواه وأقصرا وطاوع فيها العاذلين فأبصرا
وأصبح أدنى رائد الجهل والصبا كما ودّها عنا كذاك تغيرا
وأصبح أدنى رائد الوصل منهمُ كما حبلها من حبلنا قد تبتّرا
ألا أيها المدلي بكثرة قومهِ وحظك منهم أن تضام وتقهرا
سل الناس عنا كل يوم كريهة إذا ما التقينا دارعين وحسّرا
أنسنا نعاطي ذا الطماع لجامة ونطعن في الهيجا إذا الموت أقفرا
وعارضة شهباء تخطر بالقنا ترى البلق في حافاتها والسنوّرا
فرويّت رمحي من كتيبة خالدٍ وإني لأرجو بعدها أن أعمّرا

---

(١) الإعلام للزركلي ٣٩/٤ عن الاصابة وطبقات ابن سعد وتهذيب التهذيب والشعر والشعراء وغيرها.

(٢) الخنساء شاعرة بني سليم ص٩٧.

(٣) حوادث سنة ١١ هـ، ج٣ ص٢٣٥ طبعة بيروت.

ويظهر من هذه الأبيات إن أبا شجرة يحمل حقداً وحنقاً على الإسلام شديداً، وأنه شفى غيظه منهم ويرجو باستهزاء أن يعمر أكثر ليلغ أكثر من دمائهم، يقول الطبري عقب هذه الأبيات بأنه أسلم ودخل فيما دخل فيه الناس، رغم أنه ذيل كلامه هذا مما لا ينسجم معه، إلا أن نقول أنه أسلم مكرها بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، يقول الطبري ما ملخصه: إن أبا شجرة أتى عمر بن الخطاب وهو يعطي المساكين من الصدقة، فقال: يا أمير المؤمنين اعطني فإني ذو حاجة. قال: ومن أنت؟ قال: أنا أبو شجرة بن عبد العزى، قال: أبو شجرة أي عدو الله ألست الذي تقول:

فرويّت رمحي من كتيبة خالدٍ وإني لأرجو بعدها أن أعمّرا

قال ثم جعل يعلوه بالدرة في رأسه حتى سبقه، فرجع إلى ناقته فارتحلها ثم أسندها في حرة شوران راجعاً إلى أرض بني سليم، فقال:

ضنّ علينا أبو حفص بنائله وكل مختبطٍ يوماً له ورقُ
ما زال يرهقني حتى خذيت له وحال من دون بعض الرغبة الشفقُ
لما رهبت أبا حفص وشرطتهِ والشيخ يفزع أحياناً فينحمقُ

إلى آخر الأبيات.

فمتى أسلم وحسن إسلامه حتى يبلي البلاء الحسن في معارك الفتح الإسلامي، ويستشهد في معركة القادسية التي حدثت في أوائل خلافة عمر.

٤- لا وجود للرواية في كتب الأقدمين، سواء منها كتب التراجم والسير أو كتب التأريخ المطولة منها والمختصرة، رغم أن خبراً كهذا يطير صيته ولا يغفل عنه مسجلو الحقائق، وانفرد بذكرها الزبير بن بكار عن رواته المجهولين الكذابين الوضاعين.

٥- لو صحّ هذا الخبر لكان أحرى بالخنساء أن تمجّده وتسجّله في شعرها بدلاً من أن تبقى راثية أخويها اللذين قتلا في الجاهلية: صخر ومعاوية، ولها نظم فيهما متأخر عن معركة القادسية[١].

٦- إن صبغة التصنع والتكلف بادية على الوصية خصوصاً في جزئها الأخير، وما أشبهها بصناعة القصاصين وأهل المقامات الذين راج سوقهم في العصر العباسي.

٧- أثناء بحثي هذا في مصادر الكتب وجدت اثنين من الكتاب المتأخرين، وهما الدكتورة بنت الشاطئ والدكتور محمد جابر عبد العال الجبني يشككان في صحة الرواية، أما بنت الشاطئ فتشكك في صحة صدور وصية الخنساء لبنيها، وأما الجبني فإنه يتهم الرواية كلها بالوضع، وأنا أسجل ما قالا محتفظاً لهما بما توصلا إليه.

تقول الدكتورة بنت الشاطئ[٢]: (والرواة مجمعون على أن عددهم أربعة وإن لم يحددوا بالضبط أسماءهم، وحين نحاول هذا يلقانا عنت من اضطراب الروايات؛ فابن قتيبة (الشعر والشعراء: ٣٠١/١) يذكر أنها ولدت لمرداس ثلاثة بنين: زيداً ومعاوية وعمراً وبنتاً واحدة، فهل كان رابعهم أبا شجرة ابن عبد العزى وقد تاب من الردة، لكن الخنساء تقول في وصيتها لهم: إنكم بنو أب واحد وأم واحدة، فالأربعة إذن أشقاء، وقد نجد مخلصاً في اتهام هذه الوصية بالوضع وإنها في الحق لظاهرة التكلف، لكنا لا نملك أن نقطع هنا باليقين).

ويقول الدكتور الجبني[٣]: (ذهبت القصص عن الخنساء أنها رافقت بنيها الأربعة حين ضرب البعث على المسلمين، فذهبت معهم وأوصتهم في وقعة القادسية، وهذه الوصية ترد في المصادر على ثلاثة ألوان، أما مشاراً إليها كما

---

(١) ديوان الخنساء ص١٢٦، ١٠٣ وغيرها.

(٢) الخنساء ص٤٠ نقلناها بواسطة كتاب (الخنساء شاعرة بني سليم) للجبني ص٧٦.

(٣) الخنساء شاعرة بني سليم للجبني ص٨٧-٨٩.

نرى في تاج العروس الذي يقول (وروي أنها شهدت القادسية ومعها أربعة بنين فلم تزل تحضّهم بكلام فصيح، فأبلوا بلاء حسناً واستشهدوا، فكان عمر رضي الله عنه يعطيها أرزاقهم).

وأما باختلاف في النص، كما أورد صاحب أعلام النساء (ج١ ص٣١٣ وص٣١٤ وص٣١٥) الذي اختلف مع غيره، فلم يذكر أنهم بنو أب واحد وأم واحدة واتفق مع الآخرين بعد ذلك، ولعله أسقط القول بأنهم بنو أب واحد لعلمه بان أحدهم – وهو أبو شجرة – من أب والباقون من أب آخر.

وأما اختلاف بحذف بعضها، كاختلاف ابن حجر الذي قدّم وأخّر في بعض العبارات وجاء بالوصية مختصرة، فإذا تغاضينا عن هذا الاختلاف السطحي، لأنه لا يسقط النص، وجدنا صاحبة الدر المنثور تتفق مع ناشر ديوان الخنساء ص١١ في نص الوصية (في ص١١١) وهي كما يوردها على الوجه الآتي: (وكان للخنساء أربعة بنين فلما ضرب البعث على المسلمين بفتح فارس صارت معهم وهم رجال، وحضرت وقعة القادسية سنة ١٦ هـ[1] وسنة ٦٣٨م، وأوصتهم من الليل بقولها: يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا الله هو إنكم لبنو رجل واحد كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، اصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها وجللت ناراً على أرواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة).

فلما أضاء لهم الصبح باكروا إلى مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم، حتى قتلوا عن آخرهم، فبلغ الخبر إليها فقالت:

---

(١) وهذا وهمٌ لأن القادسية حدثت سنة ١٤ هـ كما في تأريخ الطبري وغيره.

(الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة).

وأنا أتفق مع الدكتورة بنت الشاطئ على أن هذه الوصية ظاهرة التكلف، وأضيف إنها لو كانت صحيحة لما غفل القدماء عن ذكرها أو الإشارة إليها على الأقل، وإذا عرفنا بعد ذلك أن من رواتها محمد بن الحسن المخزومي المعروف بابن زبالة الذي نص ابن حجر في الإصابة (ج٨ ص٦٧) على أنه أحد المتروكين رجح لدينا أنها موضوعة وأن واضعها يتميز بأمرين واضحين: أحدهما: جهله بتاريخ الخنساء أنها تزوجت اثنين، ولدت أكبر بنيها من رواحة بن عبد العزى والباقين من مرداس بن أبي عامر وجهله أيضاً: بتأريخ أكبر بنيها، فإنه أسلم وارتد ولم يعد إليه إلا مرغماً بعد أن ضاقت الدنيا في وجهه، فعاد معلناً التوبة، وذلك واضح من تأريخ أبي شجرة عبد الله الذي ذكره الطبري في أحداث سنة ١١). انتهى موضع الحاجة.

ثم وجدت للدكتور أحمد الربيعي تحقيقاً نافعاً[1] نلخص منه قوله: (لقد وقع كثير من القدماء والمعاصرين الذين ترجموا حياة العباس بن المرداس السلمي في أخطاء فاحشة عندما ظنوا أن أمه تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الجاهلية التي اشتهرت برثائها لأخيها صخر، وعندما ظنوا أن الخنساء هذه حضرت مع أربعة من أولادها يوم القادسية، وعندما ظنوا أن أولادها استشهدوا في هذا اليوم.

فالصحيح أن أم العباس بن المرداس أمة زنجية سوداء لا نعرف اسمها، وأن تماضر الخنساء ماتت في الجاهلية، وأن الخنساء التي شهدت القادسية هي الخنساء بنت عمرو النخعية القحطانية اليمانية، وأن أبنائها الأربعة لم يستشهدوا بل قاتلوا حتى فتح الله على المسلمين فعادوا إلى أمهم سالمين.

---

(١) العذيق النضيد بمصادر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ص٢١٣-٢٢٣.

وقد كان للمرداس ثلاثة زوجات، إحداهن تماضر الخنساء، وكان لتماضر أربعة أزواج غير المرداس، أحدهم عبد الله بن رواحة السلمي، ولها منه ولد واحد هو أبو شجرة عبد العزى، وقد حاول اغتيال عمر لولا الشرطة الواقفة على رأسه، وله في ذلك شعر (الكامل للمبرد ٤٨٨/١ وتاريخ الطبري ٢٦٦/٣)، ومنهم زهير بن جذيمة العبسي ولها منه اثنا عشر ولداً احدهم قيس بن زهير الذي قاد بني عبس في ملحمة داحس والغبراء، وقد قتل أكثرهم في الجاهلية، وأخوه ورقاء بن زهير له شعر يذكر فيه أمه تماضر وأباه زهيراً (الجمهرة للكلبي/ ١٧٥، العقد الفريد: ١٣٥/٥ – ١٣٧، الكامل لابن الاثير ٥٥٨/١، أمثال العرب للمفضل الضبي:٣٦ والنقائض لأبي عبيدة: ٩٧/١ – ٩٨ وغيرها)، وكان دريد بن الصمة الجشمي الهوزاني قد خطبها فردته وهو صديق أخيها معاوية وعضيده والآخذ بثأره لحلف بينهما، ولابد أن يكون عمرهما متقارباً، ودريد هو الوحيد من جيل تماضر الخنساء الذين أدركوا الإسلام، وقد قتل دريد يوم حنين في السنة التاسعة للهجرة وعمره بين ١٥٠-٢٠٠ سنة (الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٣٤٣/١، المعمرون للسجستاني: ٢٧، الأغاني للأصفهاني: ٣/١٠، ٣٢/٢٢، ٣٣ و ٧٦/١٥).

أما تماضر الخنساء فقد ماتت يوم (ذي حسى) وهو من أيام داحس والغبراء قتلها سيد بني ذبيان حذيفة بن بدر الفرازي، فقتله ابنها قيس بن زهير بن جذيمة العبسي شرّ قتلة (الأغاني: ٢٠٨/١٧، النقائض لأبي عبيدة: ٩٧/١، أمثال العرب للمفضل الضبي: ٣٦).

ولم يدرك الإسلام أحد من والديها وأخوتها الثمانية، وأزواجها الخمسة وأولادها منهم وأولادهم من غيرها سوى أبي شجرة عبد العزى والعباس بن المرداس السلمي وليس لها شعر في الإسلام.

أما الرواية التي زعمت أنها وفدت مع قومها على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه استنشدها وأعجب بشعرها وإنها شهدت مع أربعة من أبنائها

معركة القادسية فهي رواية الزبير بن بكار الذي قال عنه أحمد في كتابه (الضعفاء): إنه يختلق الأخبار ويروي الأحاديث المنكرة عن المناكير وينسبها إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (السيوطي: شرح شواهد المغني ٢٥٤/١، الذهبي في ميزان الاعتدال ٦٦/٢، وابن حجر في تهذيب التهذيب: ٣١٣/١).

وأما الخنساء التي شهدت يوم القادسية بأشبالها الأربعة فهي امرأة من النخع، وهي رواية الطبري (التاريخ: ٥٤٤/٣) وابن اعثم الكوفي (الفتوح:٢٠٦/١) وابن الجوزي البغدادي (صفة الصفوة ٣٤٧/٤).

ومن القدماء الذين أشاعوا رواية ابن بكار بن عبد البر في الاستيعاب (١٨٢٧/٤) وابن الأثير في أسد الغابة (٩٠/٧) والنويري في نهاية الأرب (٢٣/١٨، ٢٦ و٢١٥/١٩) وابن خلدون في العبر (م٢ ق١ ص٦٣٧) وابن حجر في الإصابة (٢٧٩،٢٨٠/٤) والسيوطي في شرح شواهد المغني (٤٥٢/١) .

أما من المعاصرين فجرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (٧٤١/١) والبستاني في دائرة المعارف (٤٨٥/٨) والزركلي في الإعلام (٨٦/٢) وجواد علي في المفصل (٨٧٧/٩) وغيرهم من الذين ساقوا رواية ابن بكار على علاتها قبل أن يسألوا أنفسهم: أين خطب تماضر الخنساء التي حرضت بها قومها بني الشريد في حروب الجاهلية لو كانت خطيبة؟ وأين شعرها الإسلامي لو كانت صحابية؟ ولماذا لم ترث أبنائها الأربعة – وهم فلذات أكبادها – وقد استشهدوا أربعتهم في ساعة واحدة وهي النائحة الثكلى التي رثت صخراً وبكته حتى عميت وماتت على زعم ابن بكار؟).

انتهى ملخّصاً.

أقول: بغض النظر عن المناقشات في بعض التفاصيل فإن المهم وحدة النتيجة مع ما توصلنا إليه.

ثمرة البحث:

بعد هذا التمحيص الذي تعرضت له الرواية فقد أسفرت الحقيقة عن وجهها، ولاح الصبح لذي عينين بأن الرواية من نسج الوضاعين الكذابين وقد راق للزبير بن بكار – مصدرها الوحيد – بثها لكي يغطي على مأثرة أم البنين فاطمة بنت حزام الكلابية زوجة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) التي تلقت نبأ استشهاد بنيها الأربعة العباس وعبد الله وعثمان وجعفر في معركة كربلاء سنة ٦١هـ بقولها: (الحمد لله الذي جعل أولادي فداءً لأبي عبد الله الحسين (عليه السلام) والحسين يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والإسلام فهم فداءً للإسلام.

ولكن الزبير هذا وهو من نسل عبد الله بن الزبير الذي ترك الصلاة على محمد وآل محمد أربعين جمعة في خطبه حتى التاث عليه الناس، فقال: إن له (صلى الله عليه وآله وسلم) أهل بيت سوء إذا ذكرته اشرأبت نفوسهم إليه وفرحوا بذلك، فلا أحب أن أقرّ أعينهم بذلك[1]، وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) فيه قوله: ما زال الزبير منا أهل البيت حتى أدرك فرخه ونهاه عن رأيه[2]، وينسب مثل هذا القول لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال: ما زال الزبير يعد منا أهل البيت حتى نشأ عبد الله[3]، وهذا الفرع من ذاك الأصل ومن يشابه أبه فما ظلم.

على أن انحراف الزبير بن بكار عن أهل بيت النبوة عليهم السلام معروف، يقول المرزباني: انحراف الزبير بن بكار عن أهل البيت (عليهم

---

(١) الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، ج١ ص٢٩٤.

(٢) معجم رجال الحديث، السيد الخوئي، مج١٠ ص١٩٤.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر المطبوع بهامش الاصابة لابن حجر مج٢ ص٣٠٤.

السلام) ظاهر[1]، وللزبير هذا هنات وهنات نسبها إلى آل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين طهّرهم الله وأذهب عنهم الرجس، فعند الله جزاؤه وهو خير الحاكمين.

والتأريخ الذي كان ملكاً للحكومات الظالمة الجائرة تأثر كثيراً بهذا الدس والتحريف؛ فقلب الحقيقة خيالاً والخيال حقيقة، ووجد الحكام في مثل هؤلاء الوضاعين ما يحقق لهم أمانيهم في طمس كل فضيلة لآل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وصنع أبطال وهميين قبالتهم، وكانت أم البنين إحدى ضحايا هذه السياسة الظالمة فقد اندرست مآثرتها واختلست الخنساء بغير حق مكانها ولكن ...

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(التوبة:٣٢).

---

(١) الموشح ص٥٤ نقلناها عن كتاب (السيدة سكينة بنت الحسين (عليه السلام)) للسيد عبد الرزاق الموسوي المقرّم

مسؤولية المدرسين عن انتظام التحصيل في الحوزة العلمية الشريفة[1]

بسمه تعالى

الحوزة العلمية كيان مقدس اكتسب قدسيته من الهدف الذي يبتغيه وهو رضا الله تبارك وتعالى، ومن العمل الذي يؤديه وهو إعلاء كلمته تبارك وتعالى وهداية البشر والحفاظ على الشريعة الإلهية وصيانتها من الانحراف، واكتسب قدسيته أيضاً من انتسابه إلى النبي والأئمة الطاهرين الذين أجاب الله بهم دعوة خليله إبراهيم ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾(إبراهيم:٣٧) ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ -في قلوب المؤمنين- وُدّاً﴾(مريم:٩٦) ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾(الشعراء:٨٤) فالحوزة الشريفة فيها نفحة من تلك الدعوة المباركة، واكتسبت قدسيتها من نزاهة أبنائها ونكرانهم للذات وتحليهم بالأخلاق الفاضلة والصورة النقية التي يعرضونها في حياتهم.

ولكن الحوزة لا تخلو من السلبيات التي تحتاج إلى أن نتعاون على معالجتها تحقيقاً للآية الشريفة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:٣)، وأخص بالذكر في حديثي هذا كثرة التعطيلات وعدم وجود مواعيد محددة لأيام التحصيل والتعطيل.

وأرى أن للمدرسين دوراً كبيراً في هذا الاتجاه فهم عنصر مهم في تركيب هذا الكيان الشريف وبهم قوامها وديمومتها وهذا يعني أمرين:

---

(١) خطاب وُجّه إلى أساتذة الحوزة العلمية الشريفة متزامناً مع بدء العام الدراسي محرم ١٤٢٣هـ.

الأول: استشعار عظمة نعمة الله تبارك وتعالى عليهم أن جعلهم في هذا الموقع المقدس، وممن يساهم في تشييد هذا الصرح العظيم أعني الحوزة الشريفة التي حفظت الدين والمذهب طيلة أربعة عشر قرناً حتى وصل إلينا غضاً طرياً كأنه نزل اليوم.

وقد قلت في مناسبة سابقة أني كلما قرأت أو سمعت قول تعالى ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(التوبة:١٢٢) استشعر عظيم المنة واللطف الإلهي بي إذ جعلني بفضله من أهل هذه الآية. فإن كل العطاء الإلهي الذي ذكرته الأحاديث لطالب العلم شامل له _أي المدرس- بالأولوية بل أنه يحظى بألطاف خاصة فإنه يبذل العلم وينفقه على المحتاجين إليه وينشره، وبذل العلم لمن لا يعلمه صدقة، وأنه يزكو بالإنفاق، وهذا ما جربناه عملياً فإن إفاضات يحصل عليها المدرس أثناء وبعد إلقائه المحاضرة لم يحصل عليها أثناء الدراسة، والمراجعة و (المذاكرة به تسبيح والعمل به جهاد)[1].

وبالمدرّسين تنعقد حلق العلم التي ورد فيها أنها (روض من رياض الجنة)[2] وأنه (ترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم وفي صلواتها تبارك عليهم ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه، فطوبى لمن لا يحرمه الله من حظه)[3] وفي حديث آخر (لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم من العلماء الداعين إليه والدالين عليه والذابين عن دينه. بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته ومن فخاخ النواصب الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك السفينة سكانها

---

(١) بحار الأنوار: ١:١٧١.

(٢) بحار الأنوار:١٨٨:٧١.

(٣) بحار الأنوار: ١:١٦٦.

لما بقى أحد إلا ارتد عن دين الله أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل)[١] وفي حديث رواه الإمام الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (يجيء الرجل يوم القيامة، وله من الحسنات كالسحاب الركام أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا رب أنى لي هذا ولم أعملها؟ فيقول: هذا علمك الذي علمته الناس يعمل به بعدك)[٢].

الثاني: الشعور بالمسؤولية تجاه هذه النعمة فإن من واجب النعمة أن تشكر، ومن وجوه الشكر أن تؤدي حقوق هذه النعمة وفروضها كما ينبغي لها بإخلاص، فإن الله تبارك وتعالى إذا علم الإخلاص من عبده رضي منه بالقليل ووفقه للكثير.

وقد أحسن الظن بي بعض فضلاء الحوزة الشريفة ممن يحمل وعياً اجتماعياً وحسا مرهفاً بعظم المسؤولية، فطلب مني وضع جدول للمواعيد الثابتة لتعطيل الدراسة في الحوزة الشريفة كخطوة في طريق الالتزام بالتحصيل، ومنع الفوضى والإرباك الذي يحصل في سير الدراسة في غياب هذه المواعيد المنظمة والذي نعاني منه جميعاً ونشكو من تبعاته وآثاره السلبية التي أدت إلى ضعف المستوى العلمي، وقلة الاستفادة من الدروس، وبطئ عملية صقل المواهب وإنضاج الكفاءات، ليتسنى توفير العدد الكافي من المجتهدين والعلماء والفضلاء والأساتذة خصوصاً في الأزمان المتأخرة.

وأرى أن الجرعة الرئيسية من العلاج بيد المدرسين فإذا ملكوا زمام أنفسهم، والتزموا بالحضور فإن الطلبة سيلتزمون وسيشعر أحدهم بالخجل لو غاب عن الدرس بلا ضرورة قصوى.

---

(١) بحار الأنوار: ٢:٦.

(٢) بحار الأنوار: ٢:١٨.

وقد وعدت هذا الأخ بالإجابة ولكن في بداية السنة الهجرية لتأسيس ارتكاز حوزوي إن لنا عاماً دراسياً منتظماً يبدأ في شهر محرم وينتهي في شهر ذي الحجة، مقابل الوضع القائم الآن من عدم معرفة سنة دراسية واضحة.

وإذا انتظم لنا عام دراسي فإنه سيكون مفتاحاً للكثير من البركات فسنحدد مواعيد الامتحانات ومراحل الدراسة الحوزوية فهذا في السنة الأولى وذاك في الثانية، وما دمتم في بداية السنة الثانية من درس (كفاية الأصول) فأنتم في المرحلة السادسة من مراحل (دراسة السطوح) التي تستمر سبع سنين يتأهل بعدها الطالب لحضور بحث الخارج في الفقه والأصول والمقرّر له ست سنين، فيكون الطالب بعد ثلاث عشرة سنة من التحصيل مهيأ لإفاضة ملكة الاجتهاد على نحو الاقتضاء طبعاً لا العليّة.

وسيُحدّد وفق هذا الارتكاز أنّ هذا امتحان نصف السنة وذاك امتحان آخرها، وسنستطيع وضع (الخطة السنوية للدراسة)[1] بأن نحدد عدد الأسابيع الدراسة وهي (٣٤) أسبوعاً بالمعدل فإذا كان عدد المحاضرات المعطاة أسبوعياً (٥) محاضرات فهذا يعني (١٧٠) محاضرة في السنة فإذا حددنا معدل ما يدرس خلال المحاضرة الواحدة أمكن معرفة ما يجب إنجازه خلال العام الدراسي.

وفي ضوء هذه الخطة يحدد الأستاذ نسبة إنجاز عمله المقرر له، وقد لا يحتاج الكتاب هذا العدد من المحاضرات وإنما تكفيه (٨٥) محاضرة مثلاً فيخصص له موسم واحد (أو ما يسمى في النظام الأكاديمي كورس) ويكون الامتحان عند الانتهاء منه امتحاناً نهائياً.

---

(١) طبّق سماحته هذه الأفكار في مشروع (جامعة الصدر الدينية) وألزم المدرسين بوضع مثل هذه الخطة.

وقد لا يحتاج الدرس إلى خمس محاضرات أسبوعياً وهكذا تعرف كل هذه التفاصيل في ضوء الخطة السنوية ويكون المدرس مسؤولاً أمام الله تعالى قبل أي أحد عن تنفيذها، كما أن المدرس يستطيع مراقبة عمله فإذا حصل أي تأخر في المقدار المطلوب منه فإنه يستطيع ترتيب نفسه لتلافيه.

وبحسب خبرتي في التدريس التي أرجو أن تكون نافعة فإني أقدم بين يدي إخواني المدرسين بعض الأمور المفيدة:-

١- أن يخلص نيته لله تبارك وتعالى ولا يستهدف غيره من حب الجاه والدنيا وكثرة الإتباع فإن ذلك منشأ الوقوع في الرذائل الخلقية، فينبغي أن يتساوى عنده قلة الحضور وكثرتهم ولا يتغير قلبه على من يترك حلقة الدرس ولا يفرق بينه وبين من يحضر عنده.

٢- الشعور الكامل بالمسؤولية أمام الله تعالى وصاحب العصر (أرواحنا له الفداء) فإن هذا الشعور هو الدافع الحقيقي للجد والاشتغال والالتزام، وإذا لم يتوفر عنده فلا تنفع في ضبطه كل المؤثرات الخارجية الأخرى.

٣- أن يكون صدره واسعاً يستوعب كل الطلبة على اختلاف مستوياتهم الأخلاقية والعلمية والاجتماعية، وان لا يجرح مشاعر أحد حتى ولو صدر منه سؤال تافه أو تصرف سيء وإنما ينبهه بلطف وبإشارة خفية أو سراً أو يتلافى الموقف بلباقة.

٤- أن لا يتصدى لتدريس أي مادة إلا أن يتسلط عليها بشكل كامل وتكون له القدرة الذاتية على استيعابها، والإحاطة بها وعرضها ولا يتكل على الحواشي والشروح، فإني ما درست أصول الفقه للمظفر إلا بعد أن أكملت درس الكفاية تقريباً وكنت في عرضه أحضر البحث الخارج. وهكذا ومن دون ذلك فإن المدرس يظلم نفسه والطلبة الذين يحضرون عنده.

٥- وان يتولى توجيه الطلبة وإرشادهم إلى ما ينفعهم في حياتهم العلمية والعملية ولا يبخل عليهم بالنصيحة أو إلفات النظر إلى ما يطور قابليتهم ويصلح حالهم.

٦- التحضير بشكل جيد للدرس وعدم الاستهانة به ولا بالطلبة وتلافي التقصير في الدرس اللاحق.

٧- أن يكون بمثابة الأب لطلبته وهو أب فعلاً (فالآباء ثلاثة أب ولدك وأب زوجك وأب علمك) فيتولى رعايتهم والسؤال عنهم ومتابعة التزامهم بالدرس فإذا غابوا تفهم أسباب ذلك، وأن يسعى لقضاء حوائجهم بالمقدار الممكن.

٨- العناية المكثفة بذوي الكفاءات في أي مجال والتركيز عليهم لأنهم الهدف من الحوزة كلها، وإنما تبذل الجهود والأموال من أجل تحصيل هذه النماذج وإعدادها لتواصل حمل الأمانة.

٩- أن لا يتجاوز وقت المحاضرة (٤٥) دقيقة ولا يقل عن (٣٠) وعدم إضاعة الوقت بالإشكالات والتفريعات التي تشتت المطلب وتشغل بال الطالب بأمور زائدة.

١٠- أن يتبع الأسلوب المناسب لإيصال الأفكار إلى الطالب كتكثير الأمثلة ووضوح البيان وإعادة الشرح بصيغ مختلفة وتلخيص المطلب بعد نهاية الشرح وتقريره باختصار قبل الدخول في تفاصيله وهكذا.

١١- أن لا يجعل المدرس درسه منبراً للتعبير عن ميوله واتجاهاته وصب انتقاداته على من لا يوافقه في الرأي فإن هذا مما ينفي بركة الدرس ويذهب ببهاء المدرس.

١٢- أن يحترم صاحب الكتاب الذي يدرسه ويحاول الدفاع عنه ما أمكن ولو كان الدليل لا يساعد عليه، فإن المتون إنما تدرس لا لتبني آراء أصحابها وإنما لاطلاع الطالب على نظريات العلم وأراء أصحابه، ولا يكثر الانتقاد عليه فإنه مما يقلل اهتمام الطالب بالكتاب ويجرئه على انتقاص العلماء ويسلب التوفيق من المدرس والطالب معاً.

١٣- أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة المذكورة في الكتب الأخلاقية لأن الطلبة يتأثرون بأستاذهم ويتخذونه قدوة حتى في ألفاظه وحركاته وطريقة حياته، فكلما كان نموذجاً كاملاً نفع في تكامل طلابه.

١٤- أن لا يقتصر درسه على العلم الذي يعطيه، بل يغتنم كل فرصة ليعطي الفائدة الأخلاقية والموعظة والنصيحة الاجتماعية، وألفات نظر الطلبة إلى مسؤولياتهم تجاه أنفسهم وحوزتهم ومجتمعهم، وأن يطعم درسه بالقصص والروايات المرتبطة بالبحث فإنها تشد الطالب وتعينه على فهم الدرس وتذكره.

١٥- إجراء الاختبارات بشكل مستمر بأي شكل يراه مناسباً، ليحث الطلبة على المراجعة والتحضير، ولتمييز الطالب المثابر عن غيره، وليعطي كل ذي حق حقه من غير غبن لأحدهم، فإن المساواة بين الجميع تدعوا إلى ضعف همة الجيد واستوائه مع الضعيف.

ونختم الكلام بذكر مقطع من رسالة الحقوق للإمام السجاد (عليه السلام) ذكر فيها حق المعلم على الطالب وبالعكس فقال (وحق سايسك بالعلم: التعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه وأن لا ترفع عليه صوتك ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب عنده أحداً وأن تدفع عنه إذا ذكر بسوء وأن تستر عيوبه، وتظهر مناقبه، ولا تجالس له عدواً ولا تعاد له ولياً فإذا فعلت

ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله جل اسمه، لا للناس).

(وأما حق رعيتك بالعلم فإن تعلم ن الله عز وجل إنما جعلك قيماً لهم فيما آتاك من العلم، وفتح لك من خزائنه، فإن أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم. ولم تضجر منهم، زادك الله من فضله وإن أنت منعت الناس علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك.كان حقاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهاءه ويسقط من القلوب محلك).

ملاحظة: سيكون افتتاح العام الدراسي ١٤٢٣ هـ يوم السبت ١٥ محرم بإذن الله تعالى...

التاريخ	المناسبة	التاريخ	المناسبة
١-١٣ محرم	ذكرى استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)	٢٥ رجب	وفاة الإمام الكاظم (عليه السلام)
٢٥ محرم	وفاة الإمام السجاد (عليه السلام)	٢٧ رجب	زيارة المبعث النبوي الشريف
٧صفر	وفاة الإمام الحسن (عليه السلام)	١٥ شعبان	زيارة مخصوصة للإمام الحسين (عليه السلام) ومولد صاحب العصر (عجل اله فرجه)
١٧ صفر	وفاة الإمام الرضا (عليه السلام)	شهر رمضان	انتشار الحوزة للوعظ والإرشاد والتوعية
٢٠ صفر	زيارة الأربعين	١-٣ شوال	عيد الفطر المبارك

التاريخ	المناسبة	التاريخ	المناسبة
٢٨ صفر	وفاة رسول الله (ص)	٢٥ شوال	وفاة الإمام الصادق (ع)
٨ ربيع الأول	وفاة الإمام السن العسكري (عليه السلام)	آخر ذي القعدة	وفاة الإمام الجواد (عليه السلام)
١٣-١٥ جمادي الأول	وفاة الصديقة الزهراء (عليه السلام)	٧ ذي الحجة	وفاة الإمام الباقر (عليه السلام)
١-٣ جمادى الثاني	وفاة الصديقة الزهراء (عليه السلام)	٩ ذي الحجة	زيارة عرفة
١ رجب	زيارة مخصوصة للإمام الحسين (عليه السلام)	١٠-١٣ ذي الحجة	عيد الأضحى المبارك
٣ رجب	وفاة الإمام الهادي (عليه السلام)	١٨ ذي الحجة	عيد الغدير الأعظم
١٥ رجب	زيارة مخصوصة للإمام الحسين (عليه السلام)	الخميس والجمعة	عطلة نهاية الأسبوع

بسم الله الرحمن الرحيم

دور طلبة الحوزة العلمية في تعطيل شهر رمضان[1]

يتضمن العنوان جهتين من الكلام الأولى عن التعطيل والثانية عن شهر رمضان :

معاني التعطيل:

ففي الجهة الأولى نقول: إن للتعطيل معنيين:

أ- التعطيل المطلق بمعنى أن طالب العلم يخلد إلى الراحة والنوم والكسل في العطلة -أية عطلة-، وهو معنى غير صحيح أكيدا فان الإنسان في هذه الحياة الدنيا في عمل دؤوب نحو الهدف وهو رضا الله سبحانه، وبلوغ المزيد من درجات التكامل ورأس ماله في هذا العمل وهذه التجارة ساعات عمره التي هي في انقضاء ومرور سريع، وأية ساعة يضيعها الإنسان من دون ان يوظفها في خدمة الهدف فإنها سوف تكون حسرة عليه يوم القيامة، ويشعر بالغبن حينما يرى غيره قد استثمرها فنال مرتبة أعلى منه، وفي الخبر أن ساعات عمر الإنسان تعرض أمامه على شكل خزائن تفتح له فان قضاها في خير وجد في تلك الخزينة خيرا أو في شر – والعياذ بالله- فيجد فيها شراً، وإذا قضاها في عمل غير هادف ولا مثمر فيجدها فارغة فيتحسر على فواتها عليه دون ان يملأها بما ينفعه (ولات حين مندم).

ويشبه بعضهم حال الإنسان بأنه كما لو كان مدلى بحبل في بئر عميق، وفي قعره تنين عظيم فاتح فاه ينتظر اللحظة التي يسقط فيها هذا الإنسان المسكين ليلتهمه، وهناك جرذان في رأس الحبل تقرض به، وهو مع هذا الحال المرعب

---

(١) محاضرة ألقيت على فضلاء وطلبة الحوزة العلمية بمناسبة عطلة شهر رمضان المبارك وتوجّه الكثير منهم للتبليغ والوعظ والإرشاد.

أقبل على عسل مخلوط بالتراب على جدران البئر يلعق به وينافس الزنابير والحشرات بدلاً من أن يفكر بنجاة نفسه.

هذه الصورة الرهيبة تمثل حالنا، فنحن متعلقون بحبل العمر ويقرض فيه الليل والنهار وتنين الموت ينتظرنا، فما يلبث عمرنا أن يتصرم حتى يلتهمنا الموت ونلاقي الدواهي العظمى، وبدلاً من أن نفكر في الاستعداد له والنجاة من عقبته الكؤود نضيع وقتنا الثمين في الراحة والكسل والصراع على الدنيا الزائفة التي شبهها أمير المؤمنين (عليه السلام) بالجيفة التي تزدحم عليها الكلاب.

وليس هذا من شأن المؤمن الذي يعيش بكل كيانه لهدف سامي. قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق:٦) والكدح في اللغة العناء والتعب وفي نهج البلاغة (ليكدح المؤمن حتى يلاقي ربه).

ب- التعطيل المقيد بمعنى أنه تعطيل عن الدروس الحوزوية المتعارفة فقط، وليس تعطيلاً عن كل عمل، وهذا المعنى هو الصحيح واللائق بالمؤمن الهادف الواعي.

كيف يريح الطالب عقله ؟

فإن الطالب قد يتعب من الدرس والتحصيل وهذا شيء طبيعي فكيف يريح عقله ؟! يريحه بالقيام بأعمال ومسؤوليات أخرى لا تقل وجوبا عن تحصيله الدراسي، وهي في نفس الوقت راحة له عن الجهد العقلي الذي بذله، فراحة طالب العلم في هذا التنويع في المسؤوليات، وهذا التنقل بين المسؤوليات ضروري على الدوام لكي لا تجزع النفس وتتمرد، فإن لها حدوداً وقابليات فإذا كلفها فوق طاقتها نخشى عليها أن تعصي صاحبها فيخسر كل شيء، وإلى هذا التنوع أشار عليه السلام (إن العقول لتمل أو لتكل كما تكل

الأبدان، فروّضوها بطرائف الحكم) فمن حقها أن ترتاح بعد أن تبذل جهوداً مضنية، لكن راحتها ليس بالخمول والكسل وكثرة النوم وإنما بممارسة مسؤوليات وأداء واجبات مغايرة

ما هي المسؤوليات التي يمارسها طالب العلم في التعطيل:-

فما هي المسؤوليات التي يمارسها طالب العلم في التعطيل:-

أولها وأهمها :نشر أحكام الله سبحانه وتوجيه المجتمع وإرشاده وتوعيته بالموعظة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال المنبر الحسيني، أو إلقاء المحاضرات، أو عقد الندوات، أو إجراء الحوارات، وهذا واجب الجميع والحوزة تكون مقصرة لو وجدت نقطة في أقصى البلاد لم تبعث إليها من يهدي أهلها ويرشدهم إلى سواء السبيل.

وقد أكد القران كثيراً هذا الدور المهم، قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروفِ وينهون عن المنكرِ﴾ (آل عمران:١٠٤) وأنتم يا رجال الحوزة القدر المتيقن من هذه الأمة، وقال تعالى: ﴿فَلَولا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرقَةٍ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِيْنِ وَلِيُنذِرُوا قَومَهُم إذا رَجَعُوا إليهِم لَعَلَّهُم يَحذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

وقد تفقهتم خلال سنة كاملة واستوعبتم كثيراً من المعلومات فبقي عليكم دور إيصالها إلى المجتمع، فإذا قمتم بهذا الدور فاستمعوا لما يعدكم الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأجر الجزيل والثواب الجميل، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (من قوى مسكيناً في دينه ضعيفاً في معرفته على ناصبٍ فأفحمه لقنه الله يوم يدلى في قبره أن يقول : الله ربي محمد نبيي وعلي وليي والكعبة قبلتي والقرآن لهجتي).

وعن معاوية بن عمار قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) رجل راوية لحديثكم يبث ذلك بين الناس ويشّدده في قلوبهم وقلوب شيعتكم، ولعل عابداً من شيعتكم ليست له هذه الرواية أيهما أفضل؟ قال (عليه السلام): الراوية لحديثنا يشد به قلوب شيعتنا أفضل من ألف عابد).

وروي عن علي (عليه السلام) أنه قال: (من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الذي حبوناه به جاء يوم القيامة على رأسه تاج من نور، يضيء لأهل جميع تلك العرصات وعليه حلة لا يقوم لأقل سلك منها الدنيا بحذافيرها، ثم ينادي منادٍ من عند الله تعالى يا عباد الله هذا عالِم من بعض تلاميذ آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا فمن أخرجه في الدنيا من حيرة جهله فليتلبث بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات إلى نزهة الجنان، فيخرج من كان علمه في الدنيا خيراً أو فتح عن قلبه من الجهل قفلاً أو أوضح له شبهة).

ثانياً: الالتفات إلى تنقية القلب وتطهير النفس، فإننا قد أعطينا السنة كلها لغذاء العقل وهو على أهميته إلا أنه لا يكفي وحده بل لابد من الاهتمام بغذاء القلب من الموعظة والازدياد من المعرفة بالله سبحانه بالتدبر بالقران الكريم والأدعية الشريفة وقراءة كتب الأخلاق والوعظ والتهذيب، فمن وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن (عليه السلام) (يا بني أحيي قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة) وذات مرة قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأصحابه (إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل وما جلاؤها يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال : قراءة القرآن وذكر الموت)[1].

---

(١) عوالي اللئالي: ٢٧٩/١.

فإذا تأمل الإنسان في مبدأه ومنتهاه وما يؤول إليه أمره من الموت وما بعد الموت فسيحصل على ثمار مهمة: الاستهانة بالدنيا وتحقير زخارفها، السمو عن الأعمال الدنيئة والانشداد إلى الله سبحانه والتعلق به.

شهر رمضان خير فرصة لتطهير القلب:

وهذا العمل يعني إعمار القلب وتطهيره وإن كان ضرورياً على مدى السنة كلها، إلا أن شهر رمضان خير فرصة له لما فيه من أجواء سمو روحي، حيث تغل فيه الشياطين وتخمد شهوات النفس الأمارة بالسوء ويعيش الجميع أجواء الطاعة لله سبحانه.

وقد حشد الأئمة (عليهم السلام) عدداً وافراً من الأدعية والمناجاة لإعطاء هذا الشهر الشريف دفعة إلهية ضخمة، وليكرس الإنسان نفسه لله سبحانه، ويزداد هذا التكريس في العشر الأواخر من شهر رمضان حيث كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يطوي فراشه -كناية عن اجتناب النساء - ويشد مئزره للعبادة، وكان بعض المراجع ممن له مقام في العرفان يسد مكتبه في هذه الأيام ويمتنع عن لقاء الناس،والبعض الآخر كان يغادر أهله ولا يعرف احد أين يولّي وجهه حتى نهاية الشهر.

إن غار حراء الذي دخله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومكث فيه متفرغا للتأمل والعبادة والمناجات والذكر الدائم مطلوب منا ان ندخله باستمرار، ولا أقل من هذا العشرة أيام بالسنة كما كان يفعل (صلى الله عليه وآله وسلم) لنجلو قلوبنا ونطهرها من الرين والصدأ المتراكم عليها من الذنوب والغفلة والاشتغال بفضول الدنيا من أكل أو نوم أو كلام، قال تعالى ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكسِبُونَ﴾ (المطففين :١٤).

ثالثها : مراجعة الدروس وتدارك ما فات منها، وسد الثغرات التي حصلت خلال المسيرة الدراسية.

رابعها : الاهتمام بالاتجاه الفكري أو ما نسميه بالوعي الاجتماعي فانه من مقومات شخصية العالم الديني ومع ذلك فان منهاج الدراسة الحوزوية المتعارفة خالية منه،فعليك أن تسعى لتحصيله بجهدك وتوفيق الله سبحانه، ومن أهم الكتب في هذا لمجال كتاب (في ظلال القران) وغيره لكبار مفكرينا المخلصين[1].

خامسها: تحصيل العلوم المكملة للدراسات الحوزوية مما لا يدخل في منهجها المألوف، كالتفسير والعقائد والتاريخ والرجال، مضافاً إلى الثقافة العامة والعلوم العصرية.

سادسها: تبادل الزيارات واللقاءات خصوصاً مع الأرحام، وتحسين العلاقات مع من تدّخل الشيطان بينك وبينه فحصل سوء تفاهم فتسعى لإصلاح ذات البين فانه أفضل من عامة الصلاة والصوم كما عبر أمير المؤمنين (عليه السلام).

سابعها: كتابة البحوث والدراسات وصقل هذه الموهبة، فانه من المؤسف حقاً أن تعيش النجف حاضرة الفكر ومصنع العلماء والمفكرين عقدين من الزمان خالية ممن يشخص قضايا المجتمع وسلبياتها ويعالجها، فلم تصنع الحوزة خلال هذه المدة مفكراً واحداً وهذا مما لا يمكن قبوله.

فعلى الإخوة الفضلاء والطلبة شحذ الهمم والتصدي لدراسة ما يعصف بالمجتمع من مشاكل وانحرافات وشبهات، وكتابة البحوث وعلاجها

---

(١) لم نكن نستطيع التصريح بأسمائهم كالشهيدين الصدرين والسيد الخميني والشيخ المطهري (قدس الله أرواحهم جميعاً).

ومواجهتها، ويفضل ان تكون البحوث بحجم كراسات وكتيبات يسهل قراءتها ولا يتعذر بذل الثمن بإزائها ويكفي في هذه الكتابات تلخيص أفكار علمائنا أو مفكرينا الكبار وتجميعها وصياغتها بما يناسب واقعنا المعاش.

الجهة الثانية في استقبال شهر رمضان :

لماذا جعل الله تعالى الأعمال في هذه الأيام مضاعفة؟

قد يسأل سائل لماذا عين الله سبحانه أياماً مباركة وليالي شريفة اهتم بها وجعل الأعمال بها مضاعفة، هل لعظمتها في نفسها ؟ أم لارتباطها بحوادث معينة؟ أم لا هذا ولا ذاك ؟ قد تصح بعض الأجوبة أو كلها وقد يوجد غيرها، إلا أن احد الأجوبة الصحيحة إنها فرصة منحها الله سبحانه بلطفه وكرمه وتوفيقه لعباده ليضاعف لهم العطاء نظير ما يفعله البعض بتوفير فرصة (الجوكر) للمتسابقين فيأخذ بها المتسابق لتضاعف له النقاط التي يحرزها.

وقد وفر الله سبحانه لعباده عدة فرص خلال السنة لكن أهمها وأوفرها حظا شهر رمضان ففي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في وداع شهر رمضان، واني انصح بقراءته في استقبال شهر رمضان ليعرف الإنسان قيمته قبل الدخول فيه ويزداد معرفة بعظمته وجلالة قدره وعظمة نعمة الله سبحانه بتوفير هذه الفرصة لعباده وبإبقائهم أحياء حتى أدركوا هذه الفرصة مجدداً، وإلا فإن أشخاصاً عديدين كانوا معنا في شهر رمضان السابق ليسوا معنا الآن لكن الله بفضله ورحمته ولطفه أدرك بنا هذا الشهر العظيم وجدد لنا هذه الفرصة لينظر كيف نصنع.

دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في وداع شهر رمضان

قال الإمام السجاد (عليه السلام) : (الذي زدتَ في السوم على نفسك لعبادك، تريد ربحهم في متاجرتهم لك، وفوزهم بالوفادة عليك، والزيادة منك، فقلت تبارك اسمك وتعاليت ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾، وقلت: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، وقلت: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ إلى أن يقول (عليه السلام): (اللهم وأنت جعلت من صفايا تلك الوظائف، وخصائص تلك الفروض شهر رمضان الذي اختصصته من سائر الشهور، وتخيّرته من جميع الأزمنة والدهور، وآثرته على كل أوقات السنة بما أنزلت فيه من القرآن والنور، وضاعفت فيه من الإيمان، وفرضت فيه من الصيام، ورغّبت فيه من القيام، وأجللت فيه من ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر. ثم آثرتنا به على سائر الأمم، واصطفيتنا بفضله دون أهل الملل).

إلى أن يقول (عليه السلام): (السلام عليك يا شهر الله الأكبر ويا عيدَ أوليائه. السلام عليك يا أكرم مصحوب من الأوقات، ويا خير شهر في الأيام والساعات. السلام عليك من شهر قربت فيه الآمال، ونشرت فيه الأعمال. السلام عليك من قرين جل قدره موجوداً، وأفجع فقده مفقوداً، ومرجوٍّ آلم فراقه. السلام عليك من أليف آنس مقبلاً فسرّ، وأوحش منقضياً فمضّ. السلام عليك من مجاور رقّت فيه القلوب، وقلّت فيه الذنوب. السلام عليك من ناصر أعان على الشيطان، وصاحبٍ سهّل سُبل الإحسان. السلام عليك ما أكثر عُتقاء الله فيك، وما أسعد من رعى حُرمتك بك. السلام عليك ما كان أمحاكَ للذنوب، وأسترك لأنواع العيوب. السلام عليك ما كان أطولك على المجرمين، وأهيَبك في صدور المؤمنين. السلام عليك من شهر لا تُنافسه الأيام. السلام عليك من شهر هو من كل أمرٍ سلامٌ، السلام عليك غير كريه المُصاحبة، ولا

ذميم الملابسة. السلام عليك كما وفدت علينا بالبركات، وغسلت عنّا دنس الخطيئات. السلام عليك غير مودّع برماً ولا متروك صيامه سأماً. السلام عليك من مطلوب قبل وقته، ومحزونٍ عليه قبل فوته. السلام عليكَ كم من سوء صرف بك عنّا، وكم من خيرٍ أُفيض بك علينا) إلى آخر الدعاء المليء بهذه المعارف الإلهية الجليلة.

ومما يستقبل به شهر رمضان أيضا خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في آخر جمعة من شعبان التي رواها أمير المؤمنين (عليه السلام) والتي تمثل دستور عمل في هذا الشهر المبارك. أعاننا الله سبحانه على طاعته وجنبنا معصيته، وجعلنا ممن ينال غاية رضاه، وختم لنا بالحسنى، انه ولي النعم وهو حسبنا ونعم الوكيل. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

فلنرجع إلى الله
بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ (النور:٣١)

نص الكلمة التي ألقاها سماحة العالم الفاضل الشيخ محمد اليعقوبي – دام ظله الشريف – استجابة لرجاء تقدم به أحد السائلين طلب فيه من سماحته – دامت بركاته – أن يقدم نصيحة لمن يصوم ويبتعد فقط في شهر رمضان ويترك عباداته بمجرد انقضاء هذا الشهر المبارك فكتب سماحته:

بسمه تعالى:

إن مثل هذا الشخص لو التفت إلى عدة أمور لتمسك بعبادة الله بكل سرور في جميع الأزمنة سواء في شهر رمضان أو في غيره، وفي مختلف الحالات سواء في اليسر أو العسر وفي الشدة والرخاء.

الأمر الأول:

إن التكاليف الشرعية ليست طوقاً في عنق الإنسان ثقيلاً يريد أن يتحرر منه، بل هو تشريف له. وأضرب لك مثالاً لو أن الملك دعي إلى مأدبة فأناب إنساناً بدلا عنه، كم سيكون هذا الإنسان محظوظاً أن ينال شرف النيابة عن الملك ويتحدث باسمه، فكذلك الإنسان اختاره الله سبحانه ليكون خليفته في هذه الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠) والله ملك الملوك ورب الملوك فكم تكون عظمة النعمة أن يستخلف أحداً ويسخر له كل ما في الأرض ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة:٢٩) وينقل عن

شخص عارف انه احتفل يوم بلوغه سن التكليف الشرعي لأنه يوم تشريفه بأعظم النعم.

الأمر الثاني :

إن الشريعة الإلهية إنما وضعها الله سبحانه لتنظيم حياة البشر وهدايتهم إلى ما فيه صلاحهم؛ لأنه خالقهم وهو العارف بما يصلحهم، فإن أي جهاز يعطل نرجع إلى الشركة المصنعة للجهاز فتعرف عيبه وطريقة إصلاحه، والله هو خالق الإنسان وصانعه فهو العارف بمناشئ انحرافه وطرق علاجها، ومن القبيح والمستهجن أن نرجع إلى نفس الإنسان التائه الضال ليرسم لنا طريق الصلاح، وقد جربت البشرية كل النظم الوضعية فزادتها سوءاً على سوء وظلماً على ظلم، ومازالت تتجرع ويلات تلك النظم البشرية، والنتيجة أن الالتزام بالتعاليم الإلهية هو الطريق الوحيد الذي يضمن للبشرية سعادتها واستقرارها وطمأنينتها، وأنت ترى بعينك وتحس سعادة المؤمن واستقراره الروحي في مقابل شقاء الكافر الفاسق وصراعه النفسي وانحرافاته ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤).

الأمر الثالث :

إن من شأن كل عاقل أن يرد الجميل بالجميل ويجازي الإحسان بالإحسان ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠)، ونعم الله تعالى علينا كثيرة سواء على صعيد أبداننا التي هي عبارة عن معامل ومصانع كثيرة تعمل بدقة وإتقان، وأبسط مراجعة لكتاب (الطب محراب الإيمان) تنبئك عن هذا، أو على صعيد الحياة حولنا من كون متناسق وأرض طيبة معطاء ونعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:٣٤) وجزاء هذا الإحسان إحسان مثله، ولما كان الله غنياً عن عباده، ولا يمكن أن يصل إليه نفع

من أحد؛ فردُّ الإحسان بالنسبة إليه طاعته، ومن أشكال شكر النعم أن تطيع المنعم بها، أما عصيانه مع نعمه الوفيرة وبنفس نعمه فهذا مما لا يرتضيه عاقل .

الأمر الرابع :

إنّ كل واحد منا يحب أن تزيد النعم عليه وهي بيد الله سبحانه المنعم الحقيقي وقد وعدنا سبحانه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٧)، وفي الحديث: (بالشكر تدوم النعم) فعلى من يرجو إفاضة النعم وزيادتها عليه أن يطيع الله سبحانه ويشكره، ليزيده الله سبحانه من النعم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦).

الأمر الخامس :

إنه إذا أخبرنا إنسان ثقة بأن حيواناً مفترساً في هذه الجهة، فإننا سنهرب تجاه الجهة المعاكسة منه ونتخذ الإجراءات الواقية من الوقوع في الخطر، فإذا أكد هذا الخبر ثقة آخر ازدادت استعداداتنا لذلك وكنا أكثر حزماً. وقد أخبرنا مائة وعشرون ألف نبي أنه سيكون يومُ القيامة، ويثاب فيه المطيع على طاعته ويعاقب العاصي على معصيته بنار وقودها الناس والحجارة، أفلا يوجب هذا الحذر والابتعاد عن كل ما يورطنا في هذه النار المتأججة؟ وقد وصفها القرآن الكريم بمشاهد مرعبة، وأخبرنا أن معصية الله سبحانه توقعنا فيها، وأن طاعته تورثنا جنّة عرضها عرض السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وفي الختام أخاطب الفئة التي ذكرها السائل – أيّده الله تعالى – وهم الذين يلتزمون بأوامر الله سبحانه في شهر رمضان خاصة، وهي خطوة جيدة منهم إلى الأمام في تجاه الله سبحانه، فهم بالتأكيد أفضل ممن يعصي الله سبحانه

حتى في هذا الشهر الشريف، وقد قال تعالى ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (الكهف:٣٠) ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أو أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥).

لكنها خطوة ناقصة ولا تتم إلا بالالتزام الحاصل على طول الخط، وإن النقاط التي ذكرناها لا تتحقق بهذا الالتزام الناقص، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٢٧) وليس من المتقين من يترك الطاعة في بقية أيام السنة، فيوشك أن لا يقبل منه عمل. وقد حذر القرآن الكريم من هذا التبعيض في طاعة الله سبحانه، فقال عز من قائل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (البقرة:٨٥).

فعلى الأخوة المؤمنين أن يلتفتوا إلى هذه النقاط التي ذكرناها ويعملوا على تحقيقها دائماً، ولا يغرنكم بالله الغرور وهو الشيطان الذي يريد أن يخرجكم من الجنة، أي جنة طاعة الله سبحانه ورضوانه، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢) ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ (الأعراف:٢٧) وهو تقوى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف:٢٦) ليريهما سوءاتهما وعورتهما، وأسوء العورات هو الانحراف عن طاعة الله سبحانه، والانغماس في طاعة الهوى والنفس الأمارة بالسوء. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٦).

فما أشد العدو الذي يرانا ولا نراه، ولكن الله تعالى أعاننا عليه ونبهنا إلى خدعه وغروره وشراكه وفخوخه، وما علينا إلا أن نكون على حذر وملتفتين، ولا تأخذنا الغفلة فإنه ليس له سلطة على البشر إلا التزيين والغواية، ويبقى اتخاذ القرار بإرادة الإنسان واختياره ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ

أن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم:٢٢) فليس لنا أن نتسامح ونتهاون في أمر الله سبحانه فنخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

إننا جميعا مطالبون بالعودة إلى الله سبحانه والرجوع إليه لأنه هو الغاية وهو المنتهى ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق:٨) ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (النجم:٤٢) قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سبأ:٤٦)، فلنغسل قلوبنا مما علق بها من أدران المعاصي ولنتوجه إلى الله ضارعين تائبين عازمين على عدم العود لمعصيته، وإن الله ليفرح بعودة عبده إليه أكثر من فرح شخص تائه في الصحراء قد فقد دابته وعليها كل متاعه وما يحتاج إليه من مؤنه، ثم عثر عليها فأوصلته إلى غايته، وقد قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة:٢٢٢)، أما يريد أحدكم أن يكون ممن أحبه الله سبحانه؟! ولك أن تجرّب عندما يحبك مدير دائرتك أو رئيسك أو مرجعك كم تشعر بالنشوة، فكيف إذا أحبك رب العالمين وخالق الكون وما فيه؟!.

أسأل الله سبحانه لنا جميعاً الهداية والتوفيق خصوصاً في الفرص العظيمة التي أعدها الله سبحانه ليزيد فضله على عباده فيها وليضاعف النعم عليهم، سواء على صعيد الزمان كشهر رمضان والليالي والأيام الشريفة العظيمة، أو المكان كالمساجد والعتبات المقدسة في مجالس ذكر أهل البيت (عليهم السلام) والاحتفال بمناسباتهم، فاغتنموا هذه الفرصة إن إضاعة الفرصة غصة، وأختم كلامي بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأبي ذر : ((يا أبا ذرّ اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)).

ومن أعظم الأسباب التوسل بأولياء الله العظام وخصوصاً بقية الله الأعظم الذي نعيش برعايته وبركاته وأنظاره الشريفة، جعلنا الله من أهل خاصته وذوي الخطوة لديه وما ذلك على الله بعسير..

والحمد لله رب العالمين

محمد اليعقوبي